يناقض ما خبرنا، إلا أن ذلك لا يدعو إلى تكذيبهم ، فالرياح الجنوبية وهى عندنا رياحُ إعصارية، تسبب فى الحبشة جوًا صحوًا، والرياح الشمالية فى أوروبا عاتية، فى حين أنها فى تلك البلاد بليلة عليلة.

والآن، فبالرغم من أننا نستطيع أن نسوق أدلة أخرى ردًا على كل من جاء بتعليل لظاهرة فيضان النيل، إلا أننا سنكتفى بما أسلفنا، حتى لا نعدو ما عقدنا العزم عليه بادىء ذى بدء من حدود الاختصار.

ولما كنا قد قسمنا هذا الكتاب ـ لطوله ـ إلى قسمين حرصًا منا على تناسب أجزاء هذا السفر، فسننهى هنا هذا القسم من تاريخنا هذا.

وسنورد فى الجزء التالى بقية تاريخ مصر، مبتدئين بالكلام عن ملوك مصر وعن الحياة فى مصر فى أقدم العصور.

الجزء الثانى

إن الكتاب الأول من تاريخ ديودور ينقسم ـ لضخامته ـ إلى جزءين. يشتمل الجزء الأول منهما على مقدمة للعمل كله، وعلى معتقدات المصريين فى نشأة الكون، وتكوين العالم فى البدء، وفى الآلهة التى أنشأت فى مصر مدنًا ونسبتها إلى نفسها، وعلى آرائهم فى الأناسى الأول، وفى أسلوب الحياة فى العصر القديم، وفى عبادة الآلهة الأزلية، وفى بناء المعابد، وعلى وصف البلاد المصرية، والروايات التى تحاك حول نهر النيل، وأسباب فيضانه، وآراء المؤرخين والفلاسفة فى ذلك. ويحتوى كذلك على تفنيد كل آراء المؤرخين والفلاسفة فى

ذلـك. ويحتوى كذلك على تفنيد كل من آراء هؤلاء واحدًا بعد واحد[1]. وسنسـرد فى هذا الجزء بقية ما أسـلفنا، مبتدئيـن بملوك مصر الأول، وسـنذكر أعمـال كل منهم إلى عهد أمازيس، بعـد أن نصف باختصار أسلوب الحياة فى مصر فى أقدم العصور.

٤٣ أما عن طريقة معيشتهم فى العصر القديم، فيحكى أنهم كانوا يتخذون أكلهم فى ذلك العهد السحيق القدم من الحشائش وسوق نباتات المسـتنقعات وجذورها، بعـد الاطمئنان إلى مذاقهـا. ولقد كان النبات المسـمى أجروسـتيس[2]. أول وأهم ما أضافوه إلى أكلهم، ذلك لامتيازه بشدة الحلاوة، ولأنه غذاء كاف لجسم الإنسان. ولاحظوا كذلك أنه مفيد للماشية، يزيد وزنها بسرعة. وعرفانًا بفضل هذا النبات يحمله المصريون عندمـا يتوجهون للآلهـة ويصلون. وقد كانوا يعتقدون أن الإنسـان من هوام المستنقعات والبرك، مسـتدلين على ذلك بطراوة بشرته، وببعض الخـواص الطبيعية الأخرى، وبأنه أحوج إلـى الطعام الرطب منه إلى الطعام الجاف. ويقال إن السمك كان ثانى ما أقام به المصريون أودهم، ويزودهم النيل بكميات وفيرة منه، خصوصًا بعد الفيضان حينما ينخفض النهر ويجف[3]. وكذلك يأكلون لحم بعض الأنعام، ويتخذون من جلودها لباسًا، وكانوا يصنعون بيوتهم من الغاب، ولم تزل آثار هذه العادة باقية

(١) يكاد يكون من المحقق أن هذه الفقرة ليست من قلم ديودور. ولكن الكلام الذى يليها لا يتسق مع نهاية الفصل الحادى والأربعين وهو نهاية الجزء الأول.

(٢) هو النجيل، وفى اللاتينية Cynodon Dactylon

(٣) يشير إلى جفاف المستنقعات التى يخلفها فيضان النهر.

بين الرعاة المصريين، فهل إلى الآن لا يصنعون بيوتهم ـ فيما يقال ـ إلا من الغاب، واجدين في ذلك كفايتهم. وبعد أن أمضى المصريون أجيالا عديدة ملتزمين هذا الضرب من الحياة فطنوا أخيرًا إلى ما يصلح للأكل من محصول الأرض، ومن بينها الخبز المصنوع من البشنين. وينسب البعض هذا الاكتشاف إلى إيزيس، بينما ينسبه البعض الآخر إلى أحد الملوك القدماء وهو المدعو مينا، ويروى الكهنة في أساطيرهم أن هرمس ابتكر العلوم والفنون، بينما استنبط الملوك ما كان ضروريًا لإقامة الأود. ولذلك لم يكن يؤول الملك في العصور القديمة لأولاد الملوك، بل للذين يؤدون أعظم الخدمات، وذلك إما لأن القوم كانوا يحثون ملوكهم على أداء الخير العام، وإما لأنهم حقيقة وجدوا في كتبهم المقدسة نصًا بهذا المعنى.

ويروى بعضهم أنه في البدء حكم مصر الآلهة والأبطال لمدة تقل قليلا عن ثمانية عشر ألف عام، وأن حورس بن إيزيس كان آخر من حكم مصر من الآلهة، ويقال إن البشر حكموا البلاد بعد ذلك فترة تقل قليلا عن خمسة آلاف عام، وتمتد إلى الأولمبياد الثمانين بعد المائة[1]، حينما زرت مصر في عهد بطليموس المسمى نيوس ديونيسوس[2]، فقد حكم البلاد أربعة ملوك من الأحباش والفرس والمقدونيين[3]، فقد حكم البلاد أربعة ملوك من الأحباش، ولكن بغير

(١) الأولمبياد ال ١٨٠ = ٦٠-٥٦ ق.م

(٢)هو بطليموس الحادى عشر حكم مصر من ٨٠-٥١ ق.م ويعرف ببطليموس الزمار.

(٣)حكم الأحباش مصر من ٧١٥-٦٦٣ ق.م تقريبًا وهو عهد الأسرة الخامسة والعشرين، وحكمها الفرس من٥٢٥-٣٣٢ ق.م وحكمها المقدونيون من ٣٣٢-٣٠ق.م

اطراد فى فترات متقطعة، ومجموع سنى حكمهم يقل قليلا عن ست وثلاثين سنة. وبعد أن قهر قمبيز البلاد بقوة السلاح، حكم الفرس مصر خمسًا وثلاثين ومائة سنة، بما فى ذلك عهود ثورات المصريين التى أشعلوها لعدم استطاعتهم احتمال قسوة حكم الفرس، ولتجديف هؤلاء بآلهة البلاد. وحكم المقدونيون، وهم آخر من حكم البلاد، ستة وسبعين ومائتى عام. وفيما عدا هذه الفترات تولى الملك ملوك من أهل البلاد، عددهم سبعون وأربعمائة ملك، وخمس ملكات. واحتفظ الكهنة فى كتبهم المقدسة التى يتوارثونها بانتظام من قديم الزمان جيلا بعد جيل بوثائق عن هؤلاء جميعًا، تروى عن مبلغ جرم كل منهم، وعن شاكلته، وعما قام به فى عهده من أعمال. وإذا نحن تحدثنا بالتفصيل عن كل منهم، كانت مهمتنا طويلة شاقة، وقد تكون بغير طائل كذلك، لأن أكثر هذه الوثائق عديم القيمة، ولذلك سنحاول أن نسرد باختصار أكثر هذه الروايات جدارة بالتسجيل.

٤٥ يقول المصريون إن مينا خلف الآلهة على حكم مصر، وهو الذى علم عامة الناس كيف يعبدون الآلهة، وكيف يقربون الأضاحى. هذا، وقد استحدث المناضد والسرر واستعمال الأغطية الثمينة. وبالجملة، فقد أدخل الترف وحياة البذخ، ويقال إن تنفاخثوسTnephachthus[1] أبوبخوريسBbocchoris، الحكيم الذى تولى ملك مصر بعد ذلك العهد بأجيال عديدة،قام بحملة على بلاد العرب، ولما نفدت المؤن، بسبب

(١)تنفاخثوس هو تفاخت حكم حوالى ٧٣٠ق.م

محـــل المنطقة ووعورتهـــا، اضطر أن يبقى يومًا واحدًا بلا زاد وأن يقنع بحياة غاية في التقشـــف بين من التقى بهم من عامة الشعب. ولقد سر لذلك غاية الســـرور، فأنكر الترف ولعن الملك الذى كان أول من أدخل البذخ، ولقد أثّر هذا التغيير فى المأكل والشـــرب والنوم فى نفســـه إلى حد أنه نقش لعنتة باللغة الهيروغليفية على معبد الإله زيوس فى طيبة ويبدو أن هذا هو الســـبب الرئيســـى فى أن شـــهرة الملك مينا ومجده لم يبقيـــا علـــى مدى العصور التاليـــة. وخلفت الملك المذكـــور ـ فيما يقال ـ ســـلالته، وهى فى مجموعها اثنان وخمســـون ملكًا، حكموا أكثر من أربعين وألف عام، ولم يحدث فى عهدهم ما يســـتحق الذكر. وبعد ذلك تولى بوسيريسBusiris الملك وخلف ثمانية من ذريته كان آخرهم سميا لـــه، وهو الذى أنشـــأ فيما يقال المدينة التى يســـميها المصريون مدينة زيوس الكبرى ويسميها اليونانيون طيبة. وقد جعل محيطها ١٤٠ ستادا وجملهـــا تجميلا رائعًا، بإقامة المبانى الضخمة والمعابد الفخمة وغيرها مـــن الآثار. وأقام كذلك مســـاكن خاصة بعضها مؤلـــف من أربعة طوابق والبعض الآخر من خمســـة. وبالجملة، فقد جعل من هذه المدينة أجمل المدن لا فى مصر وحدها بل فى العالم أجمع. ويرجع الفضل إلى غناها وقوتها فى أن شهرتها بلغت جميع الأصقاع حتى إن الشاعر ذكرها فى شعره حيث يقول:

« لا ولا كل ثـــروة طيبة المصرية، التى أمتـــلأت خزائنها أيما امتـــلاء، طيبـــة ذات المائة باب، التـــى ينطلق مـــن كل باب منها،

مائتامحــارب بخليهــم ومركباتهم[1]. «ويقــول البعــض إن المدينة لم تكــن ذات مائة باب فعلا، وإنمــا كان لمعابدها مداخل خارجية كثيرة وعظيمة، ومنها نشــأت تسميتها بذات المائة باب، كأنها ذات أبواب كثيرة. والواقع أن عشــرين لألف عجلة حربيــة كانت تنطلق منها إلى الحــرب، فقد كان على طول ضفة النهر من منف إلى طيبة في الناحية الليبية مائة حظيرة للخيل تتسع كل منها لمائتي حصان، ومازال أساس هذه الحظائر باديًا إلى الآن»[2].

٤٦ ولم يؤثر عن هذاالملك وحده الاهتمام بتجميل طيبة، بل لقد وجه الكثيرون ممن خلفوه في الحكم اهتمامًا خاصًا بتقدم هذه المدينة. فلم تزين مدينة أخرى تحت الشــمس بمثــل ما زينت به من النصب العديــدة الفخمة المصنوعة من الفضة والذهب والعاج أيضًا، والتماثيل الضخمة، ومجموعات المســلات المنحوتة من حجر واحد. ومن بين المعابــد الأربعة التي أقيمت في هذه المدينة يــروع أقدمها[3] لجماله وضخامته، فمحيطه ١٣ ستادا وارتفاعه ٤٥ ذراعًا وسمك جدرانه ٢٤ قدمًا، وبهاء نصبه الداخلية متناســب مع تلك العظمة. فهذه النصب تروع بباهظ نفقاتهــا، وبما بلغته من منتهى الدقة في صناعتها. ولقد ظلــت تلك المباني قائمة إلى عصور متأخرة جدًا، أما الفضة والذهب

---

(١)هوميروس الإلياذه ٩، ٣٨١-٣٨٤

(٢)يرى بعض النقاد أن الجملة من «ويقول البعض... إلى ... إلى الآن» ليس من قلم ديودور والواقع أن قوله «في الناحية الليبية» لا ضرورة له.

(٣) يعني بغير شك معبد آمون في الكرنك.

والمصنوعات العاجيـة الثمينة، والأحجار الكريمة فقد انتهبها الفرس عندمـا أحرق قمبيـز المعابد المصرية. ويقال إن الفـرس نقلوا حينئذ هذه الثروات إلى آسـيا وجلبوا الصناع مـن مصر ليبتنوا لهم قصورهم الشهيرة فى برسيوليس وسوسا وميديا. ويقال إن ثروة مصر كانت فى هـذا العهـد عظيمة إلى حد أنه بعد أن أتت النيران على ما تركته يد النهب، جُمع ما بقى بدقة بعضه إلى بعض ووجد أنه يقوم بأكثر من ثلثمائـة طالنت من الذهب وبما لايقل عـن ثلثمائة وألفين طالنت من الفضـة. وهناك فيما يقولـون مقابر رائعة للملوك القدماء، ولم تدع لمن خلفهم من الراغبين فى محاكاتهم فى مضمار العظمة، مجالا للسـبق. ويقـول الكهنة إنهم يجدون فيما بين أيديهم من وثائق أنه كان يوجد سبع وأربعون مقبرة ملكية بقى منها إلى عهد بطليموس بن لاجوس[1] فيما يقولون سـبع عشـرة مقبرة. كان أكثرها قد تهدم عندما زرنا هذه المناطـق فى الأولمبياد الثمانين بعد المائـة. وليس الكهنة المصريون وحدهـم هم الذين يقصون ذلك اعتماداً على وثائقهم، بل إن الكثيرين مـن اليونانيين الذين زاروا طيبة فى عهد بطليموس بن لاجوس وكتبوا فى التاريخ المصرى ومن بينهم هيكاتيوسHECATAEUS[2] يوافقون على ما أوردت.

---

(١) بطليموس الأول حكم مصر ٣٢٣ – ٢٨٥ ق.م

(٢) هيكاتيوس الأبدرى مؤرخ من القرن الثالث ق . م. وكتابه « مصريات» من المصادر التى اعتمد عليها ديودور اعتمادًا كبيرًا.

٤٧ يقول هيكاتيوس إنه على بعد عشرة ستاد من المقابر الأولى، التي يؤثر أنها تضم رفات خليلات زيوس يقوم نصب لملك يدعى أوزيمانديياسOsymandyas[١] وعند مدخله دهليز من الرخام الملون طوله ٢ بليثرون، وارتفاعه ٤٥ ذراعًا، وفي نهايته يوجد بهو مربع الشكل من الحجر طول كل من أضلاعه ٤ بليثرون، يقوم على غير المألوف على تماثيل حيوانات مقطوعة من كل حجر واحد، طول كل منها ١٦ ذراعًا، منحوتة على الطراز القديم، والسقف كله مقطوع من حجر واحد، وعرضه باعان مغطى باللون الإسمانجوني وموشى بالنجوم. ويلي البهو مدخل آخر وممر يشبه الممر الذى سبق وصفه من جميع الوجوه، ولكنه يمتاز عليه بدقة ما حفر فيه من صور جميع الأشكال. وبجانب المدخل ثلاثة تماثيل، مقطوع كل منها من حجر واحد أسود أسواني، من بينها تمثال جالس هو أكبر تماثيل مصر جميعها[٢]. فطول قدمه يزيد على سبع أذرع. أما التمثالان الآخران فينتصبان بحذاء الركبتين أحدهما على اليمين والآخر على اليسار، وهما لابنته وأمه، وهما أصغر من الأول حجمًا. وهذا الأثر جدير بالتنويه لا لضخامته فحسب، بل لباهر صناعته ولطبيعة الحجر الممتازة، فبالرغم من ضخامته هذه لا يوجد به شدخ أو عيب واحد. وقد نقش عليه «**أنا أوزيمانديياس، ملك الملوك، إذا أراد أحد أن يعرف مبلغ عظمتي، وأن يعلم أين أرقد فليبزني في واحد من**

(١) الكلام على معبد الرمسيوم في الأقصر، ويظهر أن لفظ أوزيمانديماس مأخوذ من أوزر مارع، أحد ألقاب رمسيس الثاني الملكية.

(٢) تقدر زنة هذا التمثال بألف طن وهو لرمسيس الثاني.

أعمالى». وهناك أيضًا تمثال آخر لأمه ينتصب متفردًا، مقطوع من حجر واحد طوله عشرون ذراعًا. وهى تكلل رأسها بثلاثة تيجان ترمز إلى أنها بنت ملك، وزوج بنت ملك، وأم ملك، وفى هذا الممر يوجد بهو آخر أجدر من الأول بالذكر، حفرت فيه صور فى جميع الأوضاع تمثل حربه ضد ثوار بكتريا (بلخ) Bactria. فقد استقل ضدهم جيشًا مؤلفًا من أربعمائة ألف راجل، وعشرين ألف فارس، وقسم الجيش كله إلى أربع فرق، وضعت كل واحدة منها تحت إمرة أحد أبناء الملك[1].

٤٨ وقد صور الملك على الحائط الأول لهذا البهو محاصرًا قلعة يحيط بها نهر، وقد انبرى فى الصف الأول لمن تصدى له، وبجانبه سبع يشد أزره، ويشيع الرعب من حوله. ويقول بعض مفسرى هذه الرسوم، إن السبع أليف تربى على يدى الملك، وقام بنصيبه من مخاطر القتال، وجعل الأعداء يولون الأدبار خشية بطشه. ويقول البعض الآخر، إنه لما كان الملك بالغ البأس وأراد أن يمتدح نفسه بطريقة مبتذلة، فقد أبرز جبلته على صورة سبع.

أما الحائط الثانى فيرينا أسرى الحرب[2] الذين اقتنصهم الملك. وقد خُصُوا وقطعت أيديهم. ولعل فى ذلك إشارة إلى وهن عزيمتهم، وقلة حيلتهم فى مواجهة الأخطار. ونقشت على الحائط الثالث صور مختلفة ورسوم رائعة تمثل الملك يضحى ثيرانًا، وتصور الانتصار الذى

(١) هذا وصف حملة رمسيس الثانى ضد الحيثيين سنة١٢٨٨ ق.م ويقدر عدد المصريين فيها إلى عشرين ألف مقاتل.

(٢) لقد قطعت أيدى قتلى الحرب لا الأسرى

أحرزه في الحرب. وفي وسط هذا البهو أقيم مدبح تحت قبة السماء، من أحسن أنواع الرخام، دقيق الصنع بالغ الحجم. وفي ناحية الحائط الرابع يوجد تمثالان جالسان، قطع كل منهما من حجر واحد، طوله سبع وعشرون ذراعًا، وعلى جوانب هذين التمثالين توجد ثلاث ممرات تفضي من هذا البهو إلى بهو الأعمدة المشيد على نسق بهو الموسيقى Odeum، وطول كل من أضلاعه مائتا قدم وفيه مجموعة من التماثيل الخشبية تمثل خصومًا تعلقت أعينهم بقضائهم، وهؤلاء القضاه مصورون على أحد الجدران[1] وقد بلغوا الثلاثين عدداً، ويتوسطهم قاضي القضاه وقد عصبت عيناه وتدلت صورة « الحق» من رقبته وتدلت كثير من الكتب. وترمز هذه الصورة إلى أن القاضي يجب ألا يقبل الرشوة، وأن قاضي القضاة يجب ألا يعير شيئًا سوى الحق التفاته.

٤٩ ويلي هذا البهو رواق ذو غرف عديدة مختلفة تعد فيها المأكولات اللذيذة من جميع الألوان، وتوجد في هذا الرواق رسوم أيضًا، فقد مثل الملك بألوان زاهية وهو يقدم للآلهه ذهبًا وفضة، هي الدخل السنوي من جميع مناجم الفضة والذهب في مصر. ويبين النقش المكتوب تحت الرسم قيمة هذا الذهب والفضة التي تبلغ اثنين وثلاثين مليون من الفضة. ويلي هذا الرواق المكتبة المقدسة وقد كتب على وجهتها «مصح الروح» وبجوار المكتبة ترى صور جميع آلهة مصر، ويرى الملك كما في الصورة السابقة وهو

(١) يضيف بعض النقاد هنا كلمة « بغير أيدى» حتى يستقيم معنى رمز الصورة إلى أن القاضي يجب ألا يقبل الرشوة.

يقدم لكل منهم ما هو جدير به، وكأنه يشـهد أوزوريس ومعاونيه في العالم السفلي على أنه قضى حياته في البر وصالح الأعمال نحو الناس والآلهـة جميعًا. وفي ملاصقة المكتبة بنيت غرفة في غاية الأناقة، بها عشرون سريرًا، وفيها صور تمثل زيوس وهيرا والملك أيضًـا، ويظهـر أن الملك كان قد دفن هنـا. وحول هذه الحجرة، بنيت عدة غرف صغيرة بها رسـوم رائعة لجميع صور الحيوانات المقدسـة في مصر. ويفضي طريق صاعد مـن بين هذه الغرف إلى المقبرة نفسها، عند نهايته توجد عند الضريح حلقة ذهبية محيطها خمس وستون وثلثمائة ذراعًا وسمكها[1] ذراع واحدة، حفرت عليها - على مسافات متساوية طول كل منها ذراع واحدة ـ أيام السنة، وطلـوع الكواكب وغروبها كما تقضي الطبيعـة، ومواقيت الفصول مسـتخرجة منها بحسـاب علم الهيئة المصري. ويقال إن الفرس سرقوا هذه الحلقة عندما غزا قمبيز مصر.

هكـذا ضريـح الملك أوزيمانداياس الذي لم يبز سـائر الضرائح في باهظ نفقاته فحسب بل في تفنن الصناع فيه أيضًا.

٥٥ ويدعـي أهل طيبة أنهم أعرق النـاس جميعًا في القدم، وأن الفلسـفة نشـأت بينهم أولا، وكذلك علم الهيئـة الدقيق وذلك لأن جوّ بلادهم سـاعدهم أن يروا بجلاء طلوع النجـوم وغروبها. ويقولون كذلك إن الشـهور والسـنين مقوّمـة عندهم بطريقة خاصة، فهم لا يحسـبون اليوم بالقمر بل بالشـمس، والشـهر عندهم ثلاثون يومًا، ويضيفون في

(١) الأولى أن يقول «عرضها».

حسابهم خمسة أيام وربعًا كل اثنى عشر شهرًا، وبذلك يُتمُّون مدار السنة، فهم لا يزيدون شهورًا إضافية ولا يقطعون أيامًا كما يفعل أكثر اليونانيين، ويظهر أن ملاحظتهم لكسوف الشمس وخسوف القمر دقيقة، فهم يتكهنون بحدوثهما قبل أوانهما، ويتنبأون بكل جزئيات هاتين الظاهرتين بكل دقة.

ولقد أنشأ الثامن من سلالة هذا الملك ويدعى أوخوريوسUchoreus مدينة منف أشهر المدن المصرية. فقد اختار لها أنسب موقع فى البلاد كلها، حيث يتشعب النيل إلى فروع عديدة ويكوّن الدلتا التى سمّيت كذلك لشكلها. وهكذا أصبحت المدينة لحسن موقعها عند مفتاح البلاد مسيطرة على السفن التى تبحر جنوبًا. وشيّد حول المدينة صورًا طوله ١٥٠ ستادا شديد المتانة عظيم الفائدة. وابتناه بالطريقة التالية: لما كان النيل يجرى حول المدينة، ويغمرها عندما يفيض فقد أقام فى الجنوب سدا عظيما يكون عند الفيضان بمثابة حاجز لمياه النهر، وحصنا ضد الأعداء فى غير وقت الفيضان، ثم احتفر حول جميع الجوانب الأخرى للمدينة بحيرة واسعة عميقة، ولما امتلأت هذه من ماء النهر المتدفق، وغمرت كل المساحة المحيطة بالمدينة فيما عدا الجانب الذى أقام فيه السدِ، هيأت للمدينة موقعًا شديد المناعة. ولقد كان خيال منشئ منف صادقا فى التكهن بملاءمة هذا الموقع إلى حد أن كل الموك تقريبًا الذين خلفوه هجروا طيبة واتخذوا منف قاعدة ومقرًا لبلاطهم. وإلى هذا يرجع السبب فى أنه من ذلك الحين بدأت شهرة طيبة فى الذبول[1] فى حين

(١) لم يستطع ديودور- وشأنه فى ذلك شأن سائر المؤرخين اليونانيين - أن يكون فكرة صحيحة عن التاريخ المصرى، فطيبة لم تزدهر إلا فى عصر الأسرة الثامنة عشرة فى حين أن=

ظلت شـــهرة منف في ازدياد إلى عهد الإسكندر الذى أنشأ على ساحل البحر المدينة التى سـميت بأسـمه، وتنافس خلفـاؤه على عرش مصر جميعهم فى العمل على زيادة روعتها، فزينها بعضهم بالقصور الفخمة، والبعض الآخر بأحواض السفن والموانئ، والبعض الآخر بمختلف النصب التذكارية والمبانى الرائعة حتى إن أكثر الناس يعتبرونها أولى مدن العالم أو ثانيها. حسبى هذا الآن، فسأصف المدينة بالتفصيل المناسب، وبعد أن هيأ منشئ منف هذا السد وهذه البحيرة، ابتنى قصرًا لايقل شأنًا عن غيره فى البلاد الأخرى. ولكنه لا يتناسب مع أريحية أسلافه ولا مع ما أبدوه من شغف بالجمال.

٥١ ويعتقـد المصريـون أن هذه الحياة الدنيـا فى غاية التفاهة، ولكنهـم يعلقون الأهميـة الكبرى علـى الحياة الأخـرى التى تجعلها الفضيلة شيئا مذكورًا. وهم يسمّون بيوت الأحياء منازل، لأنهم يقطنونها مـدة قصيرة، بينما يسـمون قبور الموتى المسـاكن الدائمة، لأننا نكمل حياتنـا إلى الأبد فى العالم السـفلى. وإلى هذا يرجع السـبب فى قلة اهتمامهم بأثاث بيوتهم فى حين أنهم لا يُجارون فى اهتمامهم بقبورهم. ويذهب البعض إلى أن مدينة منف قد سميت كذلك نسبة إلى ابنة الملك الذى أنشـأها. فقد تواترت الروايات بـأن نهر النيل أغرم بها، فاتخذ هيئـة ثور، وأنجب منها إيجيبتوس الذى أعجب به المصريون لفضائله وسـميت البلاد جميعًا باسـمه. ولمـا اعتلى العـرش كان رءوفا عادلا، وفاضـلا من جميع الوجوه. فأجمع الناس كلهـم على أنه جدير بعظيم

= منف كانت عاصمة الأسرات الأولى.

التقديـر، ولـذا فقد حظى من أجل برّه هذا بذلـك المجد الذى ذكرت. وبعـد ثمانيـة أجيال من عهد إيجيبتوس ارتقى عـرش مصر مويريس[1] Moeris الـذى ابتنى الجناح الشـمالى من معبد منف، وقد بزّ سـائر الأجنحة جميعها بهاء وروعة. واحتفر على بعد ١٠ سخينوس Schoeni من جنوب هذه المدينة بحيرة عظيمة الفائدة ، ولو أنها تطلبت مجهودًا لا يتصوره العقل.

فيقال إن محيطها ٣٦٠٠ سـتاد وعمقها فى الأكثر خمسون باعًا. فمن ذا الذى يستطيع أن يتصور ضخامة هذا العمل دون أن يكون محقًا فى تسـاؤله كم من عشـرات الألوف من الرجال اسـتخدموا، وكم من السنين استنفدت لتنفيذ هذا المشروع؟ حقًا لا يستطيع المرء أن يفى هذا المشـروع الملكى، الذى أضفى على سـكان مصر جميعًا كل هذا الخير والمنفعة، حقه من الثناء.

٥٧ ولما كان النيل لا يرتفع دائمًا إلى منسوب معين، وكان غنى البلاد متوقفًا على مستوى انتظام ارتفاعه، فقد احتفر الملك هذه البحيرة لتخزيـن المياه الزائدة حتى لا يغمر النهـر البلاد بتياره القوى فى غير أوان الحاجـة فيكوّن البرك والمسـتنقعات، وحتى لا يهلك الزرع لقلة المياه إذا لم يرتفع إلى المسـتوى المطلوب. واحتفر قناة فيما بين النهر والبحيرة طولها ٨٠ ستادا وعرضها ثلاث بلثرونات، وبوساطة هذة القناة كان يطلـق أحيانًا مياه النهر فى البحيرة، وكان أحيانًا يغلقها، وبذلك

(١)هو فيما يظهر أمنمحات الثالث من ملوك الأسرة الثانية عشرة. والحديث حول منخفض الفيوم، وبحيرة قارون.

كان يزود الفلاحين بالمياه في الموسم المناسب بفتح البوغاز وغلقه بطريقة فنية، ولكنها في الوقت نفسه كثيرة التكاليف، لأنه كان يلزم لمن يريد فتح أو غلق هذا البوغاز لا أقل من خمسين طالنت. وقد ظلت البحيرة تفي بحاجة المصريين إلى وقتنا هذا وهي تحمل اسم محتفرها، فهي تسمى إلى الآن بحيرة مويريس. وبعد فين كان الملك يحفر هذه البحيرة ترك في وسطها بقعة ابتنى عليها قبرا وهرمين، أحدهما لنفسه والآخر لزوجه، ارتفاع كل منهما ستاد واحد، وأقام على رأس كل منهما تمثالاً من الحجر جالسا على العرش، معتقداً أنه بإقامة هذه الآثار سيخلف بعده تذكارًا خالدًا لأعماله المجيدة. ووهب ما يجُبى من الضرائب على الصيد في البحيرة لزوجه لتنفقه على عطورها وأسباب زينتها الأخرى. وقد بلغت قيمة ما يصاد في اليوم الواحد منها طالنتًا من الفضة. إذ في البحيرة ـ فيما يقال ـ اثنان وعشرون نوعًا من السمك، وهي تستخرج بكميات وفيرة إلى حد أن الذين يعملون في حفظها على كثرتهم البالغة، كانوا يؤدون واجبهم بشق الأنفس. تلك إذن هي الرواية التي يحكيها المصريون عن مويريس.

٥٣ ويقال إنه بعد سبعة أجيال تبوأ سيسوسيس Sesoosis[1] العرش وقام بأعمال عظيمة طغى صيتها على ما قام به أسلافه، وقد تضاربت الآراء بصدد هذا الملك بين مؤرخي اليونان، والمصريون أنفسهم لم يستقروا بشأنه على قرار سواء في ذلك الكهنة أو الشعراء الذين مدحوه.

---

(١) يسميه هيرودوت سيسوستريس. وهيرودوت هنا يخلط بينه وبين رمسيس الثاني ولكن الاسم على الأرجح مأخوذ من اسم سنوسرت الثالث أو أوسرتسن من فراعنة الأسرة الثانية عشرة.

وسنحاول من جانبنا أن نثبت أكثر الروايات ترجيحًا وأشدها اتفاقًا مع آثاره التى مازالت قائمة فى البلاد. عند ولادة سيسوسيس قام أبوه بعمل ملكى باهر إذ جمع من كل أنحاء مصر الأطفال الذكور الذين ولدوا فى نفس اليوم ووكل بهم مرضعات ومربين، وخصهم جميعًا بتربية وتعليم واحد. وقد كان سلوكه هذا قائمًا على فرض أن الذين ينشأون معًا فى خلطة وطيدة، متمتعين بقدر واحد من حرية وإعلان الرأى يكونون أشد الناس إخلاصًا وأشجع الأقران فى الحرب. وكفل للأولاد ما يلزمهم بسخاء، ودربهم برياضة ومشاق لا تنقطع، ولم يكن يسمح لأحدهم بتناول طعامه قبل أن يكون قد قطع ثمانين ومائة ستاد جريًا، ولذلك، كانوا حين بلغوا مبلغ الرجال، صناديد أقوياء الجسم، جديرين لسمو أنفسهم بالقيادة، قادرين على احتمال المشاق لما درّبوا عليه من سامى الأغراض. وبدأ سيسوسيس بأن أوفده أبوه صحبة أترابه على رأس حملة إلى بلاد العرب، وبعد أن تحمل أهوال صيد الحيوانات المفترسة، وعانى مشاق نفاد الماء وندرة الغذاء من حين إلى حين، غزا كل الشعب العربى، الذى لم يسبق أن استعبد من قبل ذلك العهد، ولما أنفذ بعد ذلك إلى الأقاليم الغربية أدخل معظم ليبيا تحت إمرة مصر، مع أنه كان لايزال حديث السن جدًا.

ولما اعتلى العرش بعد موت أبيه وقد ملأته فتوحاته السابقة زهوًا، اعتزم أن يغزو كل المعمورة، وهناك من يقول إن ابنته أثيرتيس Athyrtis دفعته إلى مد سلطانه على العالم أجمع. ويرى البعض أنها أفلحت، لما أمتازت به من شدة الذكاء، فى إقناع أبيها بأن الحملة

ستكون سهلة ميسرة، في حين يرى البعض الآخر أنها كانت تتعاطى الكهانة وأنها اطلعت على ما يضمره الغيب عن طريق العرافة، والنوم في المعابد، وما يبدو في السماء من شارات. وكتب البعض أنه عند ميلاد سيسوسيس رأى أبوه هيفيستوس في منامه وأنبأه بأن الطفل المولود سيحكم العالم أجمع.

وهذا إذن هو السبب فيما يقولون في أن أباه جمع كل أترابه، وكفل لهم تنشئة ملكية متخذا الأهبة من قبل لغزو العالم، ولما بلغ سيسوسيس مبلغ الرجال آمن بنبوءة الإله، وحُمل على القيام بهذه الحملة.

٥٤ وتحقيقا لهذا الغرض كان مسعاه الأول كسب عطف المصريين، معتقدًا أنه لكي يصيب نجحًا في خطته يجب أن يكون المشتركون في الحملة مستعدين للقاء الموت في سبيل قادتهم وأن يكون المخلفون في وطنهم بعيدين كل البعد عن الثورة. ولذلك فقد أضفى الخير على رعاياه أجمعين بكل ما استطاع من سُبُل، فاكتسب البعض بالهبات المالية، والبعض الآخر بإقطاعات الأرض، والبعض بإلغاء العقوبات، وامتلك قلوبهم بحسن معاملته ودماثة أخلاقه، فعفا عن كل من اتهم بالخيانة العظمى، وأعفى المسجونين بسبب الدين من التزاماتهم، وقد كانت السجون غاصة بهم. وقسم البلاد كلها إلى ستة وثلاثين إقليمًا يسميها المصريون مقاطعات، ونصب على كل إقليم واليًا ليكون مسئولا عن جباية الضرائب الملكية، وعن إدارة إقليمه، وانتقى من بين رعيته أولئك الذين يمتازون بالقوة البدنية وكون منهم جيشا كفأ لمشروعه العظيم، والواقع من الأمر أنه جنَّد ٦٠٠,٠٠٠ راجل و٢٤,٠٠٠ فارس. وجهَّز ٢٧,٠٠٠ مركبة

حربيـة ووضع فرق هذا الجيـش تحت قيادة أترابه، وكانـوا قد أكتووا فعلا بنار الحرب، شـديدى الولع منـذ طفولتهم بالبطولة، يكنون الحب الأخـوى لمليكهـم ولبعضهـم البعـض، وكان عددهم يربـو على ١٧٠٠ شـخص، وأقطعهم جميعًا أجود الأرض حتى يستطيعوا ـ وقد رُتب لهم دخل كاف، وانتفت عنهم الحاجة ـ أن يتفرغوا لممارسة فنون الحرب.

٥٥ وبعد أن جهّز جيشـه سار أولا ضد الأحباش الذين يسكنون جنـوب مصر، وهزمهم واضطرهم إلى دفـع جزية من الأبنوس والذهب والعاج، ثم أنفذ حملة مؤلفة من أربعمائة سفينة إلى البحر الأحمر[1]. فهو أول من ابتنى سفنًا حربية من المصريين، واستولى على الجزائر الواقعة فى تلك الجهات.أما فى القارة نفسـها فقد أخضع الشـاطئ إلى الهند. أما هو فقد اشـتق طريقه راجلا على رأس جيشـه وقهر كل آسـيا. فهو لم يذهب إلى البلاد التى غزاها فيما بعد الإسـكندر المقدونى فحسب، بـل أوغـل أيضًا فى بعض الأقطار التى لم تطأها أقدام الإسـكندر، فقد عبـر نهر الكنج واجتاز بلاد الهند كلها إلى المحيط،وأوغل فى القبائل الإسـكيثية حتى أتى نهـر التنايسTanasis[2] الذى يفصل بين آسـيا وأوروبـا. ويقال إن جماعة من المصريين تخلفوا فى ذلك الحين بالقرب من بحر مايوتيسMaeotis[3] وكونوا قبيلة الكولخيين[4] ويسوقون الدليل

(١) يعنى الخليج الفارسى

(٢)هو نهر الدون

(٣)هو بحر آزوف

(٤) حدود بلادهم البحر الأسود فى الغرب وجبال القوازق فى الشمال، ومقاطعة جورجيا فى الشرق وطرابيزون فى الجنوب. ويرجح البعض أن الحضارة المصرية أثرت فى الكولخيين

علـى أن هذه القبيلة من أصل مصـرى، بأن عادة الختان تمارس عندها كما تمارس فى مصر فهذه العادة تسود بين الجاليات المصرية التى تنزح عن مصر كما هو الحال عند اليهود.

وأدخـل تحت نيره كذلـك الإقليم الباقى من آسـيا وأكثر جزائر الأرخبيـل ثم عبر البحر إلى أوروبا وأوغل فـى تراقيا كلها وهناك كاد أن يفقد جيشـه لنفاد المؤن ووعورة البـلاد. ولذلك فقد جعل من تراقيا حـدود حملته وأقام أعمدة فى كثير من البقـاع التى أخضعها، وكانت هـذه الأعمدة تحمـل النقش الآتى مكتوبًا بالحروف المصرية يسـمونها مقدسـة «سيسوسـيس ملك الملوك، ورب الأرباب أخضـع هذه البلاد بقوة سـلاحه» وصور على الأعمدة صورة سوءة رجل بين القبائل المحبة للحرب، وسـوءة أنثى بين القبائل المترهـة الرعديدة، فقد رأى أن هذا العضو المميز للجنس سيظهر بجلاء الأجيال المقبلة طبيعة نفس كل هذه الشعوب، وأقام لنفسه فى بعض المناطق تمثالاً من الحجر يصوره متدرعًا يحمل قوسًـا وسـهامًا ورمحًا طوله أربع أذرع وأربع راحات، وهو طول سيسوسيس نفسه فى الحقيقة. وعامل الشعوب المقهورة بالحسنى. وبعد أن ختم حملته فى تسـع سنوات أمر الشعوب المقهورة أن تحمل لمصر الهدايا كل عام كل بحسـب قدرته. أما هو فبعد أن جمع أعدادًا غفيرة جدًا من الأسـرى وكمية بالغة من أسلاب الحرب الأخرى، قفل راجعًا إلـى وطنـه وقد أنجز أعمالاً أعظم مما قام به أى ملك قبله. هذا إلى أنه زيـن جميع المعابد فى مصر بالنصب والأسـلاب الرائعة، وكافأ الجند الذين قاموا بأعمال مجيدة بالعطايا كل بحسب جدارته. وبالجملة، فلم

تكن نتيجة هذه الحملة أن جمع الجند الذين ساهموا بشجاعتهم في مشروع الملك ثروة طائلة، ورجعوا إلى أوطانهم منتصرين، فحسب، بل إن الخيرات من جميع الأنواع تدفقت على مصر بأسرها.

٥٦ وبعد، فقد سرَّح جيشه وأعفاه من مشاق الحرب، وسمح للذين ساهموا في تلك الأعمال المجيدة أن يعيشوا حياة هنيئة متمتعين بالثروة التي اكتسبوها. أما هو وقد كان تواقا للذكر الخالد، فقد أقام آثارًا عظيمة تروعك فكرتها كما تروعك المبالغ التي أنفقت عليها، فحقق بذلك المجد الخالد لنفسه، ودوام الرفاهية والأمن للمصريين. ولما كان همه الأول تمجيد الآلهة فقد ابتنى في كل مدينة في مصر معبدًا للإله الذي كان سكان المدينة يقدسونه قبل سواه. ولم يستخدم المصريين في هذه الأعمال، بل أنجزها أسرى الحرب وحدهم، ولذلك أثبت على كل معبد نقشًا يقول « إنه لم ينصب في هذا العمل أحد من المصريين» وكان الأسرى البابليون غير قادرين على احتمال مشاق هذه الأعمال، فثاروا ـ فيما يقال ـ على الملك، واستولوا على موقع حصين على ضفة النهر، وشنوا الحرب على المصريين، وعاثوا فسادًا في الإقليم المجاور. وأخيرًا، استقروا في تلك المنطقة بعد أن صدر عنهم عفو عام وأطلقوا عليها اسم موطنهم الأصلي بابلون. ويقال إنه لأسباب مماثلة أطلق اسم طرويا على المدينة التي ما زالت إلى يومنا هذا قائمة على ضفة النيل، ذلك أنه عندما ارتحل مينيلاوس[1] Menelaus

(١)المأثور في القصص أن مينيلاوس قضى ثماني سنوات هائمًا حول شواطئ البحر المتوسط قبل أن يصل هو وزوجته هيلينا إلى أسبرطة بعد حرب طروادة.

عـن طروادة، وعبـر البحر إلى مصر، وبصحبته جمع غفير من أسـرى الحرب ثار عليه هؤلاء واستولوا على بعض المواقع وظلوا يشنون الحرب إلى أن تعهد لهم بالأمن والسـلام، ثم أنشـأوا مدينة أطلقوا عليها اسـم موطنهم الأصلى عينه. ولسـت بغافل عن أن كتيزياس الأكنيدى[1] أورد روايـة أخرى بأن هاتين المدينتين، إذ قـال إن الذين ارتحلوا إلى مصر مع سميراميسSemiramis[2] أنشـأوهما وأطلقوا عليهما أسماء أوطانهم الأولى. ولكن حيث إنه من العسير أن نسوق الحقيقة بشأن هذه المسائل بدقة، فقد كان من الضرورى أن نورد مختلف آراء المؤرخين السـابقين حتى يتمكن القراء من إصابة محجة الصواب.

٥٧ ومهما يكن من شـىء فقد أقام سيسوسيس قلاعًا عظيمة نقل إليهـا جميع المدن التى لم يكن موقعهـا الطبيعى مرتفعًا، حتى يهيئ للنـاس والأنعام ملجـأ أمينا فى وقـت الفيضان. واحتفر فى كل الأرض فيمـا بين منف والبحر قنوات عديـدة متفرعة على النهر حتى يتم نقل المحصول بسرعة ويسـر. وحتى يتسنى للأقاليم كلها ـ باتصال الناس بعضهم ببعض ـ أن تنعم بحياة هادئة ويفيض من أسباب النعمة. وأهم ما فى هذا الأمر أنه حسـن البلد وجعلها بمنأى عن غزوات الأعداء فقد كان أغلب القطر المصرى قبل هذا العهد مطية سهلة للخيول والعجلات، ولكـن منذ ذلك الحين أصبح من الصعب على العدو أن يغزو لكثرة عدد

(١) عاش فى أواخر القرن الخامس ق.م. وكتب تاريخ آشور وفارس

(٢) سميراميس وزوجها نينوس هما ـ كما جاء فى الأساطير ـ اللذان أنشآ إمبراطورية نينوس أو نينوى.

القنـوات المتفرعـة على النهر. وحصن الجبهة المصرية الشـرقية على طول الصحراء من الفرما إلى هليوبوليس، وهى مسافة ١٥٠٠ ستاد، ضد الغزوات المندفعة إليها من سـوريا وبلاد العرب. وابتنى أيضًا سـفينة من خشـب الأرز طولها ثمانون ومائتـا ذراع وجهها الخارجى مذهب، والداخلى مطلى بالفضة، وقد أرصدت هذه السفينة ومسلتان من الحجر الصلد نقش عليها ما ينبئ عن عظمة قوته. ووفرة دخله وعدد الشـعوب التـى أخضعهـا للإله المقدس فى طيبة. وأقام فـى منف فى معبد الإله هيفايسـتوس تمثالين كل منهما من حجر واحد لنفسه ولزوجه طول كل منهما ثلاثون ذراعًا[1]، وتماثيل أخرى لأبنائه طول كل منهما عشـرون ذراعًا.وقد كانت إقامتها كلها للسبب الآتى:

بعـد أن قفل سيسيوسـيس راجعًا إلى مصر مـن حملته العظيمة، وكان يقضى وقته بالقرب من الفرما، حدث أن دبر له أخوه مؤامرة بينما كان يحتفى به وبزوجه وأولاده. ذلك أنه بعد أن سـكنوا إلى مخادعهم وقد لعبت الخمر برءوسـهم وضع أخوه كميات كبيرة من الغاب الجاف – وكان قـد جهزهـا من قبل ـ حول خيمة الملك، وأشـعل فيها النار، فلما اندلعت النيران فجأه سعى الموكلون بخدمة الملك كسالى لنجدته، فقد كانوا سـكارى. ولكن سيسوسـيس رفع كلتا يديه إلى السماء وصلى للآلهة لتنقذ زوجه وأولاده، وانطلق بين ألسـنة النيران سالمًا. فلما نجا بهـذه الطريقة العجيبة قرب النذر تمجيداً للآلهة جميعًا كما ذكرنا آنفًا وبخاصة هيفايستوس لأنه كان سببًا فى نجاته.

(١) يوجد بالقرب من منف تمثالان عظيمان لرمسيس الثانى، طول أكبرهما اثنان وأربعون قدمًا أو يوازى الثلاثين ذراعًا التى يذكرها ديودور وهيرودوت٢، ١١٠

٥٨ وعلى كثرة ما ينسب إلى سيسوسيس من عظيم الأعمال، فإن أجلها قدرًا فيما يبدو لنا تصرفه مع أولى الأمر فى الشعوب المقهورة فى روحاته وغدواته. فإن الملوك الذين أتيح لهم أن يبقوا على عروشهم فى الدول المغلوبة والفئة التى بلغت فيها أرفع المناصب كانوا يمثلون إلى مصر فى أوقات معينة حاملين إليه الهدايا. وكان سيسوسيس يرحب بهم ويفيض عليهم كل صنوف التكريم، ويودعهم باحترام زائد. ولكنه حينما كان يزمع زيارة معبد أو مدينة، كان يطلق الخيل من مركبته ويضع تحت النير بدلاً منها أربعة ملوك بالتناوب، معتقدًا أنه يظهر للعالم بذلك أنه لم يعد من ينازعه قصب السبق فى البطولة، وقد قهر أقوى الملوك وأبعدهم شهرة فى الشجاعة. ويبدو أن هذا الملك فاق جميع من سبقوه من الحكماء فى المجد الحربى، وعظمة وكثرة ما أقام فى مصر للآلهة من معابد، وما ابتنى من منشآت. وبعد أن حكم ثلاثا وثلاثين سنة ترك الحياة مختارًا بعد أن زايلته نعمة البصر. ولم يكسبه هذا العمل إعجاب الكهنة فحسب. بل أكسبه إعجاب المصريين كلهم بوجه عام. فقد رأوا أنه اختتم حياته ختامًا يليق بما تجلى فى أعماله من سمو النفس، ولقد زادت شهرة سيسوسيس على مر السنين حتى إنه عندما وقعت مصر فى قبضة فارس، وأراد دارا أبو أجزركسيس أن يقيم لنفسه تمثالاً فى منف أمام تمثال سيسوسيس، اعترض الكاهن الأعظم على هذا الاقتراح عندما عرضت المسألة على مجمع الكهنة، مشيرًا إلى أن دارا لم يقم بعد بما يفوق أعمال سيسوسيس، ولم يغضب الملك لذلك

مطلقًا، بل سر لهذه الصراحة في القول، ووعد بأنه سيعمل على ألا يكون لاحقًا لسيسوسيس في أمر ما إذا قسم له أن يبلغ مابلغه من العمر.

وطلب إلى الكاهن الأعظم أن يزن أعمال كل منهما في نفس العمر مبينًا أن ذلك أعدل محك لعظمتهما. ولنقنع الآن بما أسلفنا من قول عن سيسوسيس

٥٩ وورث ابنه ملك أبيه واتخذ اسمه، ولكنه لم يقم بعمل حربي أو غير حربي يستحق الذكر، وانتابته محنة عظيمة إذ فقد بصره، إما لمشابهة في تركيب الجسم بينه وبين أبيه أو كما يقول البعض لكفره بالنهر، فقد ألقى سهمه في قلب التيار المائي حينما طوحت به الأمواج العاصفة. وقد اضطرته محنة العمى هذه إلى أن يلجأ إلى المعونة الإلهية محاولا لمدة طويلة أن يسترضي الآلهة بالأضاحي والقرابين المتعددة، ولكنه لم يلق رضا. وفي السنة العاشرة، أمره الوحي أن يمجد إله هليوبوليس وأن يغسل وجهه ببول امرأة لم تتصل قط برجل غير زوجها. فاستعان أول الأمر بزوجه، ثم جرب نساء أخريات، لم يجد منهن واحدة طاهرة إلا زوج أحد البستانيين، فتزوج منها بعد أن استرد بصره، وحرق الأخريات أحياء في إحدى القرى. وقد أطلق عليه المصريون – إشارة إلى هذه الحادثة – اسم «الأرض المقدسة»[1]. وأقام الملك – انصياعًا لأمر الوحي وعرفانًا بصنيع إله هليوبوليس – مسلتين من حجر واحد سمك كل منهما ثماني أذرع وطولها مائة ذراع[2].

(١) القصة واردة في هيرودوت ٢، ١١١ باختلاف يسير.

(٢) لا تزال إحداهما قائمة إلى الآن، وهي من حجر الجرانيت وارتفاعها ٩٦ قدمًا

٦٥ وبعد ذلك الملك لم يقم الكثيرون ممن خلفوه على العرش بعمل واحد يستحق الذكر. وبعد أجيال عديدة تولى أمازيسAmasis الملك، فساس الرعية بالعنف، وعاقب الكثيرين ظلمًا، وحرم عددًا غفيرًا من ممتلكاتهم، وعامل رعاياه كلهم بازدراء وعتو. ولقد احتمل الشعب المتألم زمانًا فلم يكن في مكنته أن يحمي نفسه ضد أصحاب السلطة الكبرى. ولكن لما غزا أكتيزانيسActisanes[1] ملك الحبشة مصر وجد غيظ المصريين منفرجًا، فثارت غالبيتهم ضد أمازيس، فهزم بسهولة ووقعت مصر تحت حكم الأحباش، ولم يطر هذا النجاح بلب أكتيزنيس، فعامل الشعب المقهور بالحسنى، وقام بعمل جليل بشأن اللصوص، فلم يحكم بالموت على المذنبين ولا هو أطلق سراحهم دون عقاب البتة، بل جمع من كل أقاليم مصر المتهمين باقتراف الجرائم، وبعد أن قام بتحريات دقيقة جمع كل من أدينوا وجدع أنوفهم وأبعدهم إلى حدود الصحراء، وأنشأ لهم مدينة سميت رينوكولورا أى « مجدوعة الأنف» نسبة إلى سكانها. وهى تقع على الحدود بين مصر وسوريا غير بعيد من ساحل البحر، محرومة من كل أسباب الحياة الإنسانية تقريبا، وهى محاطة بمنطقة مغطاة بطبقة سميكة من الملح، ولا يوجد داخل حدود المدينة إلا قدر قليل من الماء في الآبار غير نقي ومر المذاق. ولقد أبعد المجرمين إلى هذه المنطقة حتى لا يمارسوا من ناحية الأعمال التى درجوا على ممارستها طوال حياتهم، فينتهكون حرمة الأبرياء، وحتى يظلوا من

(١) يرى البعض أن أكتيزانيس هو الملك سبا أو سباكا٧١٢-٧٠٠ ق.م وهو أول ملوك الأسرة الخامسة والعشرين.

ناحيـــة أخرى متميزين فى صلاتهم بغيرهم من الناس. وبالرغم من أنهم كانـــوا منبوذين فى صحراء عديمة المـــوارد تقريبًا فقد اهتدوا إلى طريقة لكسب قوتهم تناسب ماهم فيه من فقر. فقد اضطرتهم الطبيعة إلى طرق كل السبل الممكنة لمواجهة الإملاق. فقطعوا الغاب فى المنطقة المجاورة واستطاعوا بشقه أن يصنعوا منه شباكًا طويلة جدًا، نصبوها على الشاطئ على مســـافة أميال عديدة لاصطياد السمان الذى يطير فى أسراب كبيرة من ناحية البحر، فاصطادوه بكميات كبيرة أقامت أودهم.

٦١ وبمـــوت هـــذا الملك اســـتعاد المصريون الســـلطة، ونصبوا منديسMendeus[1] ملكًا عليهم، وهو مصرى الأصل، ويســـميه البعض مارّوسMarrus. ولم يقم هـــذا الملك بعمل حربى على الإطلاق، ولكنه شـــيد البناء الذى يعرف باســـم اللابرنث « قصر التيه» قبرًا له، وهو لا يدعـــو إلى العجب لضخامته بل لدقة صناعته التى لا تحاكى، فإن من يلجه لا يســـتطيع أن يجد طريقه إلى الخارج بســـهولة إلا إذا كان له دليل محنك جدًا.ويحكـــى أن ديدالوس[2] Daedalus أبحر إلى مصر، وأعجـــب بما تجلى فى هذا البناء من المهـــارة الفنية، فابتنى لمينوس Minos ملك أقريطش تيهًا يشـــبه التيه المصـــرى،وأودع فيه الحيوان المسمى مينوطور Minotaurus ولكن التيه الأقريطشى لم يبق له وجود مطلقًـــا، ويعزى إلى هذا أن أحد الملوك قد قوّضه من أساســـه، أو إلى

(١) يسميه إسترابون مرة إيماندس ومرة إيسماندس.

(٢) شخصية أسطورية تمثل عند اليونانيين بدء تطور فنى النحت والعمارة. والاسم فى اليونانية يعنى "الصانع الحاذق"

أن الزمـــان عدا عليه. أما التيه المصرى فما زال إلى يومنا هذا محتفظًا بكامل رونقه.

٦٧ وبعد موت هذا الملك ظلت البلاد بلاحاكم خمســة أجيال، تولى الملك بعده رجل نكرة سماه المصريون كيتيسCetes[1] ويعرف عند اليونان باسم بروتيوسProteus كان معاصرًا للحروب الطروادية. وكانت قد تواترت الأنباء بأنه كان متفقهًا فى علم الأرواح، فقد كان فى قدرته أن ينسخ نفسه حيوانًا مرة وأخرى شجرة أو نارًا أو أى شىء آخر. وتتفق مع هذه الرواية رواية الكهنة القائلة بأن الملك اكتســب معرفته بهذه الأمور من اتصاله الوثيق الدائم بعلماء الهيئة. هذا فى حين أن قصة نسخ شكله هذه نشــأت عند اليونان من تقليد متوارث لدى المصريين، فقد كان من عادة ملوك مصر أن يضعوا على رءوسهم رأس أسد أو ثورًا أو ثعبانًا بمثابة رمز لســلطانهم. وقد يضعون أحيانًا على رءوسهم شجرة أو نارًا وأحيانًا يضعون شــيئًا من البخور الذكى. وهم لا يتخذونها للزينة فحســب، بل ليلقوا كذلك الرعب والرهبة فى قلوب الناس. وبعد موت بروتيوس خلفه ابنــه ريمفيسRhemphis[2] على العرش، فقد قضــى حياته كلها موليًا همــه لتنميــة دخله وجمع المال من جميع مختلــف المصادر ولم ينفق ـ لخسة نفسه وجشع طبعه ـ شيئًا على قرابين الآلهه أو فى البر بالإنسان. ولما كان مديرًا حاذقًا لشــئون المال أكثر منه ملكًا، فبدلا من أن يخلف

(١) لا يعرف عن كيتيس هذا شىء. أما بروتيوس فيظهر أنه تحريف لقب مصرى، وهو فى الأساطير اليونانية ملك أرجوس.

(٢) ريمفيس هو رمسيس الثالث ويسميه هيرودوت رامسينيتوس ٣، ١٢١.

ذكـرى بطولة. خلف مبالـغ من المال أكبر مما خلفه أى ملك قبله. فقد أثر عنه أنه جمع حوالى ٤٠٠,٠٠٠ طالنت من الفضة والذهب.

٦٣ وبعد موته خلفه على العرش مدى سبعة أجيال ملوك خاملون صرفـوا همهم إلـى المتعة والترف ولذلك لم تحفظ لنا سـجلات الكهنة إشارة واحدة إلى أثر من آثارهم، أو عمل ما من أعمالهم يستحق الذكر، اللهم إلا فيما يتعلق بالملك نيلوسNileus الذى سمى النهر باسمه، وكان النهر يدعى من قبـل إيجيبتوسAegyptus. فقد احتفر هذا عددًا كبيرًا من القنوات فى مواضع صالحة، واثبت بمجهودات مختلفة حرصه على أن يزيد من فائدة النهر، ومن هنا أطلق على النهر اسمه الحالى.

وثامـن هـؤلاء الملوك خمّيـسChemmis[1] من منـف وقد حكم خمسـين عامًا وابتنى أكبر الأهرام الثلاثة التـى تعد من عجائب الدنيا السـبع. وهى تقـع فى الجانب المتاخـم لليبيا على بعد ١٢٠ سـتادا من منف و٤٥ سـتادا من النهر، وهى تملأ نفس الرائى عجبًا ودهشـة لضخامتهـا ودقة صناعتهـا. وأكبرها مربع القاعدة طـول كل ضلع من أضلاعها سـبعة بلثرونـات وارتفاعه أكثر من سـتة بلثرونات، وتندرج مساحته فى الصغر حتى تصل إلى القمة التى طول كل ضلع فيها ست أذرع. والبناء كله مشـيد من حجر صلد يصعـب صقله ولكنه يبقى إلى الأبد. فما زالت الأحجار ثابتة فى مواضعها الأصلية حافظة لكيان البناء

(١)هو خوفو ويسـمية هيرودوت كيوبس ٣، ١٢٤، ولقـد وقع ديودور فى نفس الخطأ الذى وقع فيه هيرودوت فجعل بناء الأهرام الذى تم فى الأسرة الرابعة بعد رمسيس الثالث وهو من فراعنة الأسرة العشرين.

كله من التهدم، مع أنه قد انقضى على بنائه ما لايقل عن ألف عام كما يقول البعض، أو أكثر من أربعمائة وثلاثة الآف عام كما يقول البعض الآخر. ويقال إن الأحجار نقلت من مسافة كبيرة من بلاد العرب[1]، وأن عملية البناء قد أجريت بوساطة تلال من الرمل لأن الروافع لم تكن قد اكتشفت بعد في تلك الأيام. وأغرب ما في الأمر أنه بالرغم من أن عملية البناء قد أجريت في منطقة رملية كلها، فليس هناك من أثر للتلال، أو لعملية صقل الأحجار حتى ليبدو كأن البناء لم تقمه تدريجيًا يد الإنسان بل كأن أحد الآلهة أقامه دفعة واحدة وسط الرمال المحيطة به. ويحاول بعض المصريين أن يصوروا هذا الأمر كأنه إحدى العجائب، فيقولون إن التلال صنعت من الملح والنطرون ولما أطلقت مياه النهر عليها أذابتها ومحتها نهائيًا دون أن يكون للإنسان ضلع في الأمر. والواقع أن هذه الرواية عارية عن الصحة تمامًا، فإن العدد العظيم من العمال الذين أقاموا التلال، أرجعوها بأنفسهم إلى ما كانت عليه من قبل فإن ستين وثلثمائة ألف رجل كانوا يعملون فيما يقال في هذا البناء، وقد أنجزوه بشق الأنفس في عشرين عامًا.

ولما مات هذا الملك خلفه على العرش أخوه كفرن[2] kephren وحكم ستًا وخمسين سنة، ويذهب البعض إلى أن الذي تولى الملك بعد خوفو ليس أخاه بل ابنه خابرياس Chabryas، والإجماع

(١) بلاد العرب تعني كل المنطقة الواقعة بين النيل والبحر الأحمر، ولكن الأرجح أن أحجار الأهرام اقتطعت من المنطقة المحيطة بها.

(٢) هو خفرع كما ورد في النقوش. ويسميه هيرودوت ٢، ١٢٧ كفرن كذلك.

على أن خليفة خوفو انتهج سياسته وابتنى الهرم الثانى وهو يشبه الأول من حيث المهارة الفنية ولكنه يقل عنه حجما إذ إن طول كل ضلع من أضلاع قاعدته ستاد واحد، ويدور أحد نقوش الهرم الأكبر حول المبالغ التى أنفقت فى بنائه وهو يظهرنا على أن أكثر من ستمائة وألف طالنت أنفقت على الخضراوات والطهو اللازم للعمال. أما الهرم الثانى فخال من النقوش وبه درج محفور فى أحد جوانبه، وبالرغم من أن هذين الملكين قد ابتنيا الهرمين ليدفنا فيهما، فلم يحدث أن دفن أحدهما فى هرمه، ذلك بأن المشاق التى تحملها القوم فى بنائهما، وقسوة الملكين وعنفهما، ألّبت الشعب ضدهما فآلى أن يمزق جثتيهما إربًا، وأن يلقى فى غيطه خارج القبور، ولذلك أوصى كل منهما أهله بدفنه عند موته سرًا فى مكان مجهول.

تولى الملك بعد ذلك ميكيرينوس Mycerinus الذى يسميه البعض منقرع Mwncherinus وهو ابن بانى الهرم الأكبر، ولقد شرع فى بناء هرم ثالث ولكنه مات قبل أن يتمه، وجعل طول كل ضلع من أضلاعه قاعدته ثلاثمائة قدم وابتنى خمس عشرة طبقة من الواجهة الخارجية من الحجر الداكن[1] اللون الشبيه بأحجار طيبة. أما باقى الهرم فقد ابتناه من أحجار كالتى استعملت فى بناء الهرمين الآخرين. وهو يفوقهما جدًا فى دقة صناعته وقيمة أحجاره، ولو أنه يقل حجمًا عنهما كثيرًا. ويحدثنا النقش المكتوب على الجانب الشمالى منه أن بانيه منقرع. ولم يرض عن قسوة أسلافه واجتهد فى أن يحيا حياة فاضلة يصرفها فى

(١) الطبقات السفلى من الهرم الثالث من حجر الجرانيت الأحمر

خير شعبه، ودأب على القيام بالأعمال التي اعتقد أنها تكسبه عطف شعبه. ويقولون إنه أنفق مبالغ طائلة من المال على تنظيم القضاء، باذلا هبات كبيرة للرجال الفضلاء الذين رأى أنهم لم يلقوا جزاء عادلا على يد القضاء.

وهناك ثلاث أهرام أخر طول كل ضلع من أضلاعها مائة قدم. وهي تشبه الثلاث السابقة في شكلها وليس في حجمها. ويقال إن الملوك الثلاثة السابقين ابتنوها لأزواجهم. ولقد اتفقت الآراء على أن الأهرام لم تحظ في مصر بذلك المركز الممتاز لضخامة بنائها وباهظ تكاليفها فحسب، بل لدقة صناعة بناتها أيضًا. ومهندسو المشروع أولى بالإعجاب- فيما يقال - من الملوك الذين دبروا المال لإنجازه، لأن المهندسين استنفدوا في إنجاز المشروع أرواحهم وهممهم، بينما استغل الملوك الأموال التي ورثوها ومجهودات الآخرين. ولقد تضاربت الآراء بشأن الأهرام بين سكان البلاد كما تضاربت بين المؤرخين. فيعزو البعض بناءها إلى الملوك الذين ذكرتهم بينما يعزوه غيرهم إلى ملوك آخرين. فيقولون مثلا إن الهرم الأكبر ابتناه أرمايوس Armaeus والثاني أموزيس Amosis والثالث إيناروس Inaros ويذهب البعض إلى أن الهرم الأخير كان قبرًا للمحظية رودوبيس[1] Rhobopis. فقد تواترت الرواية أن بعض حكام الأقاليم كانوا يهوونها وأنهم اشتركوا في إقامة هذا البناء مدفوعين بغرامهم بها.

(١) رودوبيس معناها حمراء الوجنتين وهي كنية غانية من غواني نوقراطيس خلبت لب خاراكسوس أخي الشاعرة سافو، فنددت بها.

٦٥ ارتقى العرش بعد هؤلاء الملك بوخوريس[1] Bocchoris وكان زرى الهيئة جدًا، ولكنه فاق جميع من سبقه من الملوك فى حكمته. وبعد زمن طويل ارتقى عرش مصر سباكون Sabacon وهو حبشى الأصل ولو أنه بز أسلافه كثيرًا فى التقوى والفضل. وقد نستشهد على طيبة قلبه بأنه ألغى أشد عقوبات القانون ونعنى بها عقوبة الموت. فبدلا من أن ينفذ حكم الموت فى المدانين، اضطرهم إلى أن يقوموا بأعمال عامة فى المدن مكبلين. وكذلك أقام جسورًا عديدة واحتفر قنوات كثيرة مفيدة، فقد رأى أنٍ يخفف منٍ قسوة العقوبة على من حكم عليهم بها. وأن يضمن للمدن أعمالا مفيدة بدلا من العقوبة عديمة الفائدة. ويمكن أن نستدل على مبلغ تقواه من الرؤى التى عرضت له، ومن قصة تنازله عن العرش، فقد رأى فى منامه كأن إله طيبة ينبأه بأنه لن يتاح له أن يستوى على عرش مصر فى هناءة أو لأمد طويل إلا إذا شطر أجسام جميع الكهنة شطرين، ومر مع حاشيته فى وسطها. ولما تكرر هذا الحلم استدعى الكهنة من جميع الأقاليم وقال لهم إن بقاءه فى البلاد قد أحفظ الإله وإلا ما أمره فى الحلم بشىء كهذا، ثم قال إنه يفضل أن ينزح عن البلاد دون أن يلوث نفسه ويؤثر أن يلقى بحياته فى يد القدر على أن يثير حفيظة ربه، ويلوث نفسه بهذه الجريمة الشنعاء لقاء استمراره فى حكم مصر. وأخيرًا سلم مقاليد الحكم لأهل البلاد وقفل راجعًا إلى الحبشة[2].

(١) هو بوكنرانف حكم مصر من ٧٣٦ - ٧١٢ تقريبًا، وهو ثانى ملوك الأسرة الرابعة والعشرين.

(٢) قصة تنازل آخر ملوك الأحباش عن حكم مصر، واردة فى النقوش القديمة ولكن الواقع أن تنازله كان تراجعًا أمام زحف الأشوريين.

٦٦ وظل العرش شاغرًا طيلة السنتين التاليتين، ولما مال العامة إلى الفتن والحروب الأهلية تحالف أقوى اثنى عشر زعيمًا، واجتمعوا فى منفٍ وعقدوا معاهدة ليرعوا الميثاق والوئام فيما بينهم ونصبوا أنفسهم ملوكا. وحكموا البلاد وفقا لعهودهم ومواثيقهم، وحافظوا على صلات الود فيما بينهم مدة خمسة عشر عامًا. ثم شرعوا فى بناء قبر مشترك لهم. فقد رأوا أنه كما رعوا الود فيما بينهم على قيد الحياة واكتسبوا مجدًا متكافئا يجب أن ترقد أجسادهم بعد الموت كذلك فى صعيد واحد، وأن يقوم الضريح بعد إتمامه شاهدًا جامعًا على مجد الذين يرقدون فيه. ولقد دفعتهم شدة حرصهم على بلوغ هذه الغاية إلى بذل أقصى الجهد ليفوق هذا البناء فى ضخامته كل ما سبقه من الآثار، واختاروا له موقعًا فى الصحراء الليبية[1] عند مدخل بحيرة موريس وشيدوا قبرهم بأحسن أنواع الحجارة. وقد اختطوه مربع الشكل طول كل ضلع من أضلاعه ستاد واحدٍ. وزينوه بالزخارف وسائر الأعمال الفنية حتى لم يدعوا لخلفهم[2] مجالا لمنافستهم، نجد فيه بعد أن نعبر السور الخارجى بهوًا تحيط به العمدة، أربعون منها فى كل جانب، وسقفه منحوت من حجر واحد، مزخرف بتجاويف هندسية، ورسومات مختلفة، وبالبهو كذلك تذكار لمسقط رأس ملك من الملوك، وإن ما فيه من معابد وطقوس، كلها مصورة ببراعة فى رسوم رائعة. ولقد كان تصميم

(١) أى فى الجانب الغربى من النيل.

(٢) هذا هو التيه المذكور فى الفصل ٦١ وقد ابتناه أمنمحعت الثالث من الأسرة الثانية عشرة.

البنـاء الـذى وصفه هؤلاء الملـوك باهظ النفقات وكبيـر الحجم – فيما يقـال – إلى حـد أنه لو لم يتركوا العرش قبل تمامه لقطعوا على غيرهم طريق منافسـتهم فى تشـييد الآثار. ولكن حدث أنه بعد أن حكم هؤلاء الملوك مصر مدى خمسة عشر عامًا انتقلت السلطة إلى يد رجل واحد، للأسـباب التالية: زود أبسماتيك Psammetichus [1] السايسى – وهو أحد الملوك الاثنى عشر، وصاحب السلطان فى المناطق المتاخمة للبحر – جميـع التجار بالبضائـع، وخصوصًا الفينيقيين واليونانيين منهم. فتخلص بهذه الطريقة من منتوجات بلاده بربح، واسـتورد عوضًا عنها منتوجـات البلاد الأخرى، فلم يربح ثروة طائلة فحسـب، بل كسـب كذلك صداقة الشـعوب وحكامها. فحسده الملوك الآخرون – فيما يقال – من أجل ذلك، وشنوا عليه الحرب، ولكن بعض المؤرخين المتقدمين يروون قصة فحواها أن الوحى أنبأ هؤلاء القادة بأن أول من يسكب منهم قربان الخمر للإله فى منف فى إناء برونزى سـيصبح سـيد مصر كلها. ولمـا ذهب أحد الكهنـة ليحضر لهم من المعبد اثنى عشـر إناء ذهبيًا نزع أبسـماتيك خوذته وسكب منها القربان. وبالرغم من أن سلوكه هذا قد أثار شـكوك زملائه فى الحكم إلا إنهم لم يشـاءوا أن يقتلوه وألزموه النفى وأن يقضى بقية حياته فى المسـتنقعات المتاخمة للبحر. وسـواء قـام النزاع من جراء ذلك أم غيرة وحسـدًا كما ذكرناه آنفًا، فالواقع من الأمر أن أبسـماتيك اسـتدعى الجنود المرتزقة من قارية Caria وأيونية Ionia وانتصـر على خصومه فى المعركة التى دارت رحاها بالقرب من

(١) حكم أبسماتيك من سنة ٦٦٣ إلى سنة ٦٠٩ ق.م.

المدينـــة التى تدعى موممفيس Momemphis وقتل بعض الملوك الذين تصدوا له، وطارد البعض الآخر إلى ليبيا. ولم يصبح لهم بعد من الطول ما ينازعون به السلطان.

٦٧ وبعد أن وطد أبسماتيك سلطانه فى المملكة بأسرها، ابتنى البهو الخارجي فى الجهة الشـرقية من معبد منف، وسور المحراب، واسـتخدم عوضًا عن الأعمدة تماثيل ضخمة طول الواحد منها اثنا عشر ذراعًـا. وفضـلًا عن المرتبات التى وعد المرتزقـة بها، فقد أجزل لهم العطاء وأفرد المنطقة التى تسـمى «المعسـكر»[1] لسـكناهم، وأقطعهم مساحات واسعة من الأرض إلى الجنوب قليلا من فرع النيل البيلوزى، ولما تولى أمازيس الملك بعد ذلك التاريخ بسـنين عديدة نقلهم من ذلك الموضع وأسكنهم منف. ولما كان السلطان قد استقام لأبسماتيك بوساطة هؤلاء المرتزقة فقد آثرهم على غيرهم بالقيام على شئون الحكم، واستمر على انتهاج سياسة استخدام قوات كبيرة من الجنود المرتزقة. وحدث أنه عندما قام بحملة إلى سـوريا، أكبر من شـأن المرتزقة، بأن عهد إليهم بالطعام، وجعل موضعهم فى الجناح الأيمن، أما القوات المصرية فقد صغر شـأنها وجعل مكانها الجناح الأيسـر مـن الفيلق. فأحفظت هـذه الإهانة المصريين وكان عددهم يربو على المائتى ألف، فشـقوا عصا الطاعة، وزحفوا على بلاد الحبشـة عاقدين العزم على أن يفتحوا لأنفسـهم بلادًا لهم وحدهم، فأوفد الملك أولا بعض قواده ليعتذروا لهم عما لحق بهم من إهانة، فلم يأبهوا برسـله، فتبعهم بنفسه فى جمهرة

(١) اكتشف فلندرز بترى أحد هذه المعسكرات فى تل دفنة غرب القنطرة.

مـن أصدقائه في زوارق. وبينما كانوا مصعدين في النيل، على وشـك عبـور الحدود المصرية، توسـل إليهم أن يثنوا عزمهـم، مذكرًا إياهم بمعابدهم ومسقط رءوسهم، وأزواجهم وأطفالهم، فرفعوا عقيرتهم جميعًا صائحين، ضاربين دروعهم بحرابهم، وقالوا ما دام سلاحهم طوع أمرهم فسيجدون وطنًا بسهولة، ثم رفعوا أرديتهم وأشاروا إلى سوءاتهم قائلين مـا دامت هـذه لنا فلن نعدم الزوجات والأبنـاء. وبهذه الروح العالية، مزدرين ما يضعه الآخرون في المكان الأرفع من الأهمية، اسـتولوا على الجزء الأكبر من بلاد الحبشة، واختصوا أنفسهم بجزء كبير توطنوا به. ولقد غضب أبسماتيك لهذا المسلك أشد الغضب، ولكنه نظم الأمور في مصـر، وبـذل عنايته في تنمية الدخل الملكي وعقـد محالفة مع أثينا وبعض المدن اليونانية الأخرى، وأحسن إلى الأجانب الذين نزحوا إلى مصر للإقامة فيها بمحض رغبتهم، ولما كان شـديد الإعجاب بالثقافة اليونانية فقد نشـأ أبناءه تنشـئة يونانية. وبالجملة، فقد كان أول ملك فتح كل[1] أسـواق مصر للشـعوب الأجنبية. وضمن للأجانب النازحين إلـى مصر عبر البحار غاية الأمن. وقد حرّم أسـلافه من الملوك دخول مصر على الأجانب بأن قتلوا بعض النازحين إليها واسـتعبدوا البعض الآخـر. ولقد كان عدم ترحيب المصريين بالأجانب سـببًا في أن صار ضلال بوسـيريس مضغة أفواه اليونانيين فلم يراعوا جانب الحق فيما

(١) يرى بعض النقاد أن النص يجب أن يتبع هنا فنقول «باقى» أسواق مصر، أى إن أبسماتيك فتح أولا الأسواق التى كانت تحت سيطرته ثم لما صار حاكما فتح للأجانب باقى أسواق البلاد.

وصفـوا من ضلاله، بل بولغ فيه إلى حد الخرافة لاسـتفحال الفوضى في هذه لبلاد.

٦٨ وبعـد أربعـة أجيال من حكم أبسـماتيك تولـى أبريس[١] Apries الملـك مدة اثنين وعشـرين عامًا. وزحف على قبرص وفينيقية بقـوات برية وبحرية كبيرة، فأخذ صيدا عنوة، وألقى الرعب في المدن الفينيقيـة الأخرى فوقعت في يده. وبعد أن هزم القبرصيين والفينيقيين في موقعة بحرية كبيرة غنم أسلابًا كثيرة ورجع إلى مصر، ثم أنفذ حملة كبيرة من بني وطنه إلى طرابلس وبرقة. ولقد فقد الجزء الأكبر منها وشق الذيـن نجوا عصا الطاعة لـه وثاروا عليه لاعتقادهم أنه دبر هذه الحملة بغية القضاء عليهم حتى يكون أكثر اطمئنانا في حكم سـائر المصريين. فبعث إليهم الملك بأمازيس[٢] أحد أعيان المصريين رسـولا، ولكن هذا لـم يعبأ بما أوصى به الملك من عقد صلـح مع الثوار، بل على العكس شـجعهم على التمادي في العصيان، واشـترك في الثورة، فانتخب هو نفسـه ملكا، وبعد زمن غير طويل، انضم سـائر المصريين إلى الثوار، فاضطـر الملك إبريس، وقـد تملكته الحيرة، إلى أن يركن إلى المرتزقة وكان عددهم ثلاثين ألف رجل تقريبًا. ووقعت المعركة بينهم بالقرب من قرية ماريةٍ وكان النصر فيها حليف المصريين، وأسر الملك أبريس وقتل شـنقا، أما أمازيس فقد نظم شـئون الملك على الوجه الذي رآه مرضيًا، وحكـم المصريين وفقا للقوانين، فنال تأييدًا عظيمًا، وغزا مدن قبرص،

(١) يرجع الكثيرون أنه فرعون خفرع المذكور في التوراة في إرميا ٣٧، ٥ و٤٤، ٣٠.

(٢) أحمس الثاني مؤسس الأسرة السادسة والعشرين حكم مصر من ٥٦٩ - ٥٢٦.

وزيـن كثيرًا من المعابد بنصب جديرة بالذكر. ولقى حتفه بعد أن حكم خمسًـا وعشرين سنة حين زحف قمبيز ملك فارس على مصر فى السنة الثالثة من الالمبياد الثالث والستين الذى فاز فيه فى سباق الأستاديون[1] بارمينديس Parmenides من أهل قمارينة Camarina.

٦٩ الآن، وقـد ألممنـا إلمامـة مرضية بأعمال ملـوك مصر منذ أقـدم العصور إلى موت أمازيس فسـنرجئ البقية الباقية، وسنسـردها فى سـياقها التاريخى. وسنتحدث الآن عن عادات المصريين باختصار مقتصرين منها على أشـدها غرابـة وأعظمها فائدة للقـارئ. فكثير من العادات التى نشـأت فى مصر، لم تنل تأييد أهل البلاد فحسـب، بل حظت بإعجاب اليونانيين الشديد، ولهذا كان أعظم من امتازوا بالتفوق الذهنى شـديدى الحرص على زيارة مصر ليتعلموا قوانينها ونظمها التى رأوها جديرة بالدرس. فبالرغم من الصعوبة التى كان الأجانب يلاقونها فـى زيارة البلاد فى العصور المتقدمة لما أسـلفنا ذكره من الأسـباب، فقـد حرص على زيارتها من القدماء أوروفيوس والشـاعر هوميروس ومن المحدثين فيثاغوراس Pythagoras من أهل سـامس Samos والمشـرع سـولون Solon وكثير غيرهـم. ويدعى المصريون أنهـم أول من عرف الحـروف الهجائيـة، ورصد النجوم. هذا إلى أنهم اكتشـفوا النظريات الهندسية، وأغلب الفنون، وسنوا أقوم الشرائع. ويقولون إن أقطع دليل على صحة ذلك أن مصر يحكمها منذ أكثر من سبعمائة وأربعة آلاف عام ملـوك جلهم من أبناء البلاد، وأنها كانت أكثر بلاد المعمورة خصوبة،

(١) مباراة فى السباق جريًا لمسافة ٦٠٦,٧٥ قدما وتعقد فى أوليمبيا.

فلو لم يلتزم سكان البلاد أحسن التقاليد والقوانين ولم ينتجهوا أصلح سبل التربية والتعليم لما كان الأمر كذلك فيما يزعمون. وسنضرب صفحًا عما لفقه هيرودوت[1] وبعض المؤرخين الآخرين عن مصر، فهم عوضًا عن التزام الحقيقة، وآثروا عامدين الإغراب وابتكار الأقاصيص لتسلية القارئ. وسنسرد هنا ما احتفظ به الكهنة المصريون في سجلاتهم من روايات وقد محصناها بدقة.

٧٠ فملوك المصريين لا يعيشون أولًا على نمط الحكام المستبدين في البلاد الأخرى، فيعملون ما يشاءون تبعًا لأهوائهم غير خاضعين لرقابة ما، فقد رسمت لهم القوانين حدود تصرفاتهم، لا في حياتهم العامة فحسب، بل في حياتهم الخاصة وأسلوب معيشتهم اليومية كذلك. فلم يكن للملك بين خدمه عبد واحد مشترى أو مولّد، بل كانوا جميعا من أبناء أشهر الكهنة، وقد جاوزا العشرين عمرًا، وتلقوا أعلى ثقافة في البلاد. وهكذا لا يتاح للملك وقد حف به أنبل الرجال للعناية ببدنه، وملازمته طوال النهار والليل، أن يأتي أعمالًا وضيعة. فما تمادى سلطان في الغواية إلا كان له من وليجته من يقوم على إرضاء شهواته. وكانت ساعات النهار والليل مرتبة بحيث كان على الملك أن يعمل في الوقت المخصص بالضبط ما يفرضه القانون لا ما تدفعه إليه نفسه. فقد كان عليه أولا عندما يوقظ في الصباح المبكر، أن يتسلم الكتب التي أرسلت إليه من جميع الجهات، حتى يستطيع أن ينجز على الوجه الأكمل جميع أعماله ومهامه، ويكون على علم تام بكل ما يحدث

(١) قرظ ديودور هيرودوت في الفصل السابع والثلاثين.

فـي جميع أنحاء المملكة، وعليه بعد ذلك أن يستحم، وأن يلبس بزة فاخرة، ويزين بالأنواط الملكية، ثم يقرب القرابين للآلهة. وجرت العادة بـأن يقف رئيس الكهنة، عندما تحضـر العتائر إلى المذبح إلى جانب الملـك، ويصلى بصوت عال وقد أحاط بهما جمهور غفير من المصريين فيدعو للملك بالصحة وسائر الأنعم مادام منتهجًا سبل العدل إزاء رعيته. وكان مـن واجـب رئيس الكهنة أن يعلن صراحـة فضائل الملك واحدة فواحدة فيقول إنه يتقى الآلهة، شـديد الرحمة بالناس، حليم، عادل، كبيـر النفس، منزه عـن الخداع، يبذل ماله بسـخاء، وبالجملة، فهو قابض على زمام شـهواته، يجزى المسيء بأقل مما يستحق من عقوبة، ويثيب المحسـن بأوفى مما أسـلف من إحسان، وبعد أن يعد كثيرًا مما شاكل هذه الفضائل، يصلى الكاهن القائم بالصلاة من أجل الخطايا التى صـدرت عن جهل، منزهًا الملك عن اللوم، ومسـتمطرًا اللعنة والعقاب على خدامه الذين أفتوه بآراء خبيثة. ولقد كان الكاهن يقوم بذلك ليهدى الملـك إلى التقوى ومخافة الله، وليرشـده إلى حياة ترضاها الآلهة، لا عن طريق الزجر العنيف بل عن طريق المدح المستحب الداعى بصراحة إلى الفضيلة. وبعد ذلك حينما يفرغ الملك من فحص أحشـاء الضحية، ويطمئـن إلى الفأل الحسـن. يقـرأ الكاتب بصوت مرتفـع من الكتب المقدسة طرفا من الحكم المفيدة، وأعمال مشاهير الرجال، حتى يتسنى لصاحب السـلطان على البلاد بأسـرها أن يتملى فى قلبه أحسن أصول الحكم فيهتدى إلى الخطة القويمة فى تدبير شـئون الأقاليم. ولم يحدد

له القانون وقت تصريف شئون الحكم، أو عقد المحاكمات فحسب، بل حدد له كذلك وقت نزهته، واستحمامه، واجتماعه بزوجته. وبالجملة، فقد خصص له وقتًا معينًا لكل شأن من شئون الحياة.

وكان من عادة الملوك أن يتعاطوا اللحم الرخيص فيأكلوا لحم العجول والإوز فقط، ويشربوا قدرًا معينًا من النبيذ، لا يكفى لامتلائهم فوق الحد أو سكرهم.

وبالجملة فأسلوب حياتهم كان منظمًا تنظيمًا معتدلاً إلى حد أنه يبدو أن واضعه لم يكن مشرعًا بل أحسن الأطباء وضعه، وصحة الملك هدفه الوحيد.

وإذا بدا عجيبًا أن الملك لم يتمتع بالحرية المطلقة فى اختيار طعامه اليومى، فأشد عجبًا من ذلك بكثير أنه لم يكن فى قدرته أن يقضى فى المخاصمات أو يصرِّف ما يعن له من الأمور، أو يقضى بعقوبة على أحد من الناس مدفوعًا بكيد له أو غيظ منه، أو بأى دافع ظالم آخر. بل عليه أن يتصرف وفق ما تنص عليه القوانين فى كل حالة.

وبالرغم من التزامهم السنن التقليدية دائمًا، فقد كانوا بعيدين كل البعد عن أن يغضبوا أو يحملوا ضغينة فى قلوبهم لأحد. بل على العكس رأوا أنهم يحيون أسعد حياة. فقد كانوا يعتقدون أنه عندما يطلق غيرهم من الناس بدون روية العنان لنزعاتهم الطبيعية، يأتون من الأعمال ما ينطوى على الخسائر أو المخاطر، وأنه يحدث كثيرًا أن يرتكب بعض

النـاس – مع علمهم بأنهم على وشـك التردى فـى الخطيئة – أعمالاً وضيعة لوقوعهم تحت سـيطرة الحـب أو الكره أو غيرهما من العواطف الأخـرى، بينما الملوك – بانتهاجهم أسـلوبًا مـن الحياة يحبذه أحكم الناس – يلتزمون جادة العدل إزاء رعيتهم فقد استشعر القوم نحوهم من الـولاء ما يزيد عما يكنونه لأهلهم من حب فلا يولى الكهنة ولا سـكان مصر كافة نسـاءهم وأولادهم وسـائر مقتنياتهم الثمينة مـن الاهتمام ما يولونه لسـلامة الملوك، ولذلك احتفظوا ردحًا طويلا من الزمان بالنظام السياسـى الذى وضعه الملوك الذين أتينـا على ذكرهم. وظلوا يتمتعون بحياة سـعيدة جدًا فى ظل هذه المجموعـة من القوانين، هذا إلى أنهم قهروا شعوبًا كثيرة، وجمعوا ثروات طائلة وزينوا بلادهم بمبان ومنشآت لا تضارع، وجملوا مدنهم بشتى أنواع النصب الباهظة النفقات.

٧٢ وتنهـض الحفلات التى تقام فى مصر بعد موت الملك دليلاً قاطعًا على ولاء الشعب لحكامه. فإن مايبعثه العرفان من تكريم يضفونه علـى ملك لا يشـعر به، ينطـوى على برهان حقيقـى على إخلاصهم. وعندما يفارق أحد ملوكهم هذه الحياة الدنيا يعم الحزن المصريين جميعًا فيمزقون ملابسـهم، ويغلقـون معابدهم ويمتنعون عـن تقديم الأضاحى للآلهة، ولا يحيون الأعياد اثنين وسبعين يومًا، ويخرج الرجال والنساء جميعًا، وقد لطخوا رءوسهم بالطين، وائتزروا فيما يلى الصدر بلباس من التيل الرفيع – فى جماعات مؤلفة من مائتين أو ثلاثمائة – فينشـدون مرتيـن فى اليوم المراثـى ملتزمين الضرب ويرتلـون المدائح للمتوفى، ذاكرين فضائله، ويصومون عن أكل اللحم والدسـم ويمتنعون عن تعاطى

النبيذ وسائر أنواع الترف، ولا يرضى أحد منهم أن يستحم أو يتطيب أو ينام على فراش وثير، أو يجرؤ على إتيان النساء، بل يحزنون حزنا عظيمًا ويحدون طوال الفترة المذكورة، كأن الواحد منهم قد فقد ابنه العزيز، فيكونون في هذه الأثناء قد جهزوا ما يلزم لإقامة الشعائر الجنائزية تجهيزًا رائعًا، وفي آخر أيام الحداد يضعون النعش الذى يضم الرفات أمام مدخل القبر، ويشكلون - طبقًا للطقوس - محكمة لتنظر فيما قدم المتوفى من أعمال في هذه الحياة الدنيا. وقد أباحوا لمن شاء أن يتهمه، أما الكهنة فتأبنه، معددة مناقبه، وألوف الناس التى اجتمعت لتشيعه تنصت إليها وتشترك في تأبينه، هذا إذا كان المتوفى قد قضى حقًا حياة مجيدة، أما إذا كانت حياته على العكس وضيعة، تصايحت الجماهير. وقد حرم كثير من الملوك حق الدفن الرسمي الذى تخوله لهم الشرائع نتيجة لاعتراض الشعب. ولذلك كان من يخلفونهم على العرش يقيمون العدل لا لما أسلفنا من أسباب فحسب بل خوفًا من العار الذى يلحق بأجسادهم بعد الموت، ومن اللعنة الأبدية كذلك. هذه إذن أهم التقاليد التى تتصل بالملوك القدامى.

٧٣ ومصر بأجمعها مقسمة إلى مديريات متعددة تسمى الواحدة في اليونانية مقاطعة، يعين لها مدير له حق الإشراف والمراقبة التامة فيها. وتنقسم البلاد فوق ذلك إلى ثلاثة أقسام كان أولها في حوزة الكهنة[1] الذين كانوا يتمتعون باحترام عظيم بين الشعب، لتفرغهم لأمور الدين،

(١) جاء ذكر نظام الطبقات في مصر في هيرودوت ٢، ١٦٤ - ١٦٨، واسترابون ١٧، ١، وأفلاطون، «تيماوس» ص ٢٤، وأيسقراط، «بوسيريس» ١٥، ١٦، وكلهم مجمعون على أن الطبقة الأولى مؤلفة من الكهنة والثانية من الجند.

ولما يبدونه لتفقههم من فرط الذكاء. وهم ينفقون من دخلهم هذا على جميع الأضاحى التى تقرب فى مصر، ويكفون مؤنة معاونيهم، ويدبرون حاجياتهم الخاصة، وذلك للاعتقاد السائد بأن عبادة الآلهة يجب ألا ينالها التحريف، ويتحتم أن تقوم بها دائما طبقة بعينها بأسلوب بعينه، وينبغى للذين يعنون بشئون الدين نيابة عن الجميع ألا تعوزهم ضرورات الحياة. وعلى العموم فقد كان الكهنة يتشاورون فى أمهات المسائل، ويلازمون الملك، تارة كمعاونيه، وتارة كوزرائه ومعلميه، وهم ينبئون الملك بالمستقبل بوساطة التنجيم والعيافة، ويقرءون له من سفر الأعمال فى الكتب المقدسة ما عساه أن يكون مفيداً، وليس الحال هنا كما هو عند اليونان، إذا يمثل رجل واحد أو امرأة واحدة هيئة الكهنوت، بل يقف الكثيرون منهم حياتهم على العبادة وتقريب الأضاحى للآلهة، ويورثون أعقابهم نفس مهنتهم فى الحياة. والكهنة معفون من جميع الضرائب، وهم يأتون بعد الملك فى الشهرة والسلطان. وكان القسم الثانى من نصيب الملك. يستقى منه دخله الذى يموّل منه الحرب، وينفق منه على بلاطه الرائع. ويثيب الأبطال بمنح تناسب جدارتهم، ولما كانت موارده هذه تفىء عليه دخلا كبيراً، لم يرهق الناس بالضرائب. أما القسم الثالث فقد وقف على الفئة التى يسمونها المحاربين وهى التى تقوم بالخدمة العسكرية.

والحكمة فى ذلك أنه ينبغى أن يكون المحاربون الذين يجازفون بأرواحهم أشد الناس تعلقاً بأوطانهم، فيتحمسون لفضل هذه المنح العقارية فى مواجهة ما تنطوى عليه الحرب من أخطار، لأنه من

السخف أن تكل سلامة الشعب بأسره إلى فئة ليس لها في البلاد التي ستحارب من أجلها نصيب كفيل بإثارة نخوتها. هذا ولكن أكثر الاعتبارات أهمية أن المحاربين إذا كانوا في بحبوحة من الرزق أقبلوا على إنجاب الأبناء، فيزيدون بذلك من تعداد الشعب إلى حد يجعل البلاد في غنى عن استخدام الجنود المرتزقة. ولما كان المحاربون يرثون حرفتهم عن آبائهم، فإن بطولة آبائهم تحفزهم إلى المجد، ولما كانوا شديدي الاهتمام منذ طفولتهم بالأعمال الحربية، فإنهم يشبون أبطالا لا تقهر في ميدان الجرأة والحنكة.

٧٤ وهناك ثلاث طبقات أخرى في الدولة، وهي الرعاة والفلاحون والعمال. فالفلاحون يؤجرون الأرض الخصبة الخاصة بالملك والكهنة والمحاربين نظير أجر زهيد، وهم يقضون كل حياتهم في فلاحة الأرض، ويفوقون بكثير فلاحي سائر الشعوب مهارة. لأنهم يتدربون على الأعمال الزراعية منذ نعومة أظفارهم. وهم أيضًا أدق منهم جميعًا علمًا بطبيعة الأرض وطرق ريِّها، ومواقيت البذر والجني وسائر عمليات جمع المحصول. وهذه المعلومات استقوا بعضها من ملاحظات أجدادهم، والبعض الآخر من تجاربهم الشخصية. وينطبق هذا الوصف كذلك على طبقة الرعاة، فقد كانوا يخلفون آباءهم على حرفة رعي الماشية كما لو كان ذلك طبقًا لقانون المواريث. فيقضون حياتهم طولها في الرعي وقد أخذوا عن أجدادهم معلومات كثيرة عن أحسن طرق رعي الماشية وتربيتها، ووقعوا هم أنفسهم على معلومات غير قليلة لشدة شغفهم بفنهم. ومما يدعو إلى الدهشة حقا، أن مربيّ الدجاج والإوز

يحصلـون، لما امتازوا به من مهارة فنيـة لفرط ولعهم بصناعتهم، على مقاديـر لا تحصـى من الدواجن، فضلاً عن الدواجـن التى تنتج بطريق التفريخ الطبيعى الذى يكتفى به سائر الناس. ذلك بأنهم لا يستخدمون الدواجـن فـى تفريخ البيـض، بل يقومون هم أنفسـهم بذلـك بطريقة صناعية عجيبة، فيحاكـون بما هم عليه من فطنة ومهارة قوى الطبيعة ومهارتها. ويلاحظ كذلك أن الناس فى مصر يبذلون الجهد فى الصناعة حتـى تتقدم وترتقى إلى غايتها المرموقة. فمصر هى البلد الوحيد الذى لا يسمح فيه للصناع بممارسة عمل آخر، أو التدخل فى شئون السياسة، بل يلتزمون ماورثوا عـن آبائهم من حرف طبقًا لنصوص القانون، حتى لا تقف منافسـة المعلم أو مشاغل السياسة أو أى شىء آخر حجر عثرة فـى طريق انكبابهم على صناعتهم. هـذا فى حين أننا نجد الصناع فى الشعوب الأخرى موزعى الهمة بكثير من المشاغل فيدفعهم الجشع إلى عدم الاستمساك بحرفتهم، فيتعلق البعض منهم بالزراعة ويساهم البعض الآخر فى التجارة، ويمارس البعض الآخر حرفتين أو ثلاثة، وفى البلاد الديمقراطية[1] يهرع الصناع فى جماعات كبيرة إلى المجالس التشـريعية فيقوِّضون دعائم النظام السياسـى، ويكتسـبون المال مـن أيدى باذلى الرشاوى، أما فى مصر فيستهدف الصانع الذى يتدخل فى السياسة أو يمتهن أكثر من حرفة واحدة لأشـد العقوبات. هذا إذن تقسيم الأمة إلى طبقات كما وضعه سـكان مصر القدامى، وذلك مبلغ استمسـاك كل فرد منهم بطبقته الخاصة التى ورثها عن أسلافه.

(١) يظهر أن ديودور يعنى أثينا على التخصيص.

٧٥ وأولـوا القضاء اهتمامًا عظيمًـا معتقدين أن لأحكام المحاكم تأثيرًا كبيرًا في الحياة العامة، وذلك بسـبيلين، فقد كان من الجلي أن الوسـيلة المثلى لردع الجرائم هي معاقبـة الجناة والانتصار للمظلومين. لأنـه إذا فقـدت المحاكم هيبتها لدى الخارجين علـى القانون، بعامل الرشـوة أو مراعاة الخواطر، تفشت الفوضى في الحياة العامة. وتوصلوا إلى غرضهم هذا بتنصيب أفضل الرجال من أحسن المدن قضاة عموميين. فقد كانوا ينتقون من كل من هليوبوليس وطيبة ومنف عشرة قضاة، وهذه الهيئة لا يمكن أن تعتبر أقل شـأنًا من مجلـس الأريوباجوس في أثينا أو مجلس الشـيوخ عن الإسـبرطيين. ويجتمع هؤلاء الثلاثون وينتخبون من بينهم أفضلهم رئيسًـا للقضاة، ثم ترسـل المدينة قاضيًا آخر ليشغل مكانه. وكان الملك يصرف للقضاة مرتبات تسد حاجتهم، وتكفي لإقامة أودهم، أما رئيس القضاة فكان يصيبه أضعاف هذا القدر. وكان من عادة كبير القضاة أن يحمل قلادة ذهبية يتدلى منها تمثال صغير من الأحجار الكريمة يسـمونه «الحق». وكان القضاة يأخذون فـي النظر في القضايا حينما يتقلد كبيرهم صورة الحق. وكانت القوانين كلها مدونة في ثمانية كتب، توضع بجانب القضاة.

وجـرت العادة بأن يكتب المدعي شـكواه بالتفصيـل مبينًا كيف حدثت الواقعة ومبلغ الضرر، فيأخذ المدعى عليه عريضة خصمه، فيرد علـى كل نقطة فيهـا مدافعا بأنه لم يرتكب هذا الأمـر، أو أنه ارتكبه ولكـن لا إثم فيـه، أو أنه أثِمَ حقًا ولكنه يسـتحق عقوبة مخففة. وبعد

ذلك يفند المدعى أقوال خصمه مستنداً إلى نصوص القانون، ثم يدفع المدعى عليه الاتهام مرة أخرى، وبعد أن يقدم كلا الخصمين العرائض التى كتباها إلى القضاء مرتين، يتعين على القضاة الثلاثين حينئذ أن يتفقوا فيما بينهم على الحكم، فيضع رئيس القضاة تمثال «الحق» على أحد جانبى الخصومة.

٧٦ هذه إذن هى الطريقة التى اتبعها المصريون فى جميع محاكماتهم، معتقدين أن الخصوم يلقون بمرافعاتهم ظلا كثيفا على الحق، ذلك أن براعة الخطباء، وسحر بيانهم، ودموع الذين يستهدفون للخطر من المتهمين، تدفع الكثيرين إلى التغاضى عن صرامة القانون، وقسوة الحق. ومهما يكن من شىء فالملاحظ أنه كثيرًا ما تخدع براعة المحامين رجالا من أفاضل القضاة، إما بخدعة، أو بسحر البيان، أو بإثارة مشاعر الرحمة فيهم. ومن ناحية أخرى، فقد رأى المصريون أنه إذا قدم المتقاضون عرائضهم كتابة كانت المحاكمة دقيقة، إذ تكون الحقائق المجردة فقط محل النظر. وبالأخذ بهذا النظام على الخصوص لا تكون اليد العليا للموهوب دون الخامل، ولا للمحنك دون الغر، ولا للكاذب الجرىء دون الصادق الحيى الطبع، بل يلقى الجميع العدل على قدم المساواة، لأن الوقت سينفسح على هذا النحو للخصوم لفحص حجج خصومهم، وللقضاة للموازنة بين حجج جانبى الخصومة.

٧٧ ونظن الآن، وبعد أن تحدثنا عن تشريعهم، أنه ليس من غير المناسب فى بحثنا هذا أن تأتى على ذكر بعض القوانين المصرية

التـــى امتازات بقدمها الســحيق، أو اتخذت وضعًا شــاذًا، أو يمكن أن تكــون ذات فائــدة لمحبى الاطــلاع. فأولاً: كان المــوت عقوبة اليمين الكاذبــة، على اعتبار أنها تنطوى علـــى جريمتين كبيرتين، الكفر بالله وخـــرق أعظم ضمان للثقة بين الناس. وثانيًا، إذا رأى أحد أثناء تجواله فـــى البلاد رجلًا يُقتل أو يعانى على أى وجه أذى ما، دون أن ينقذه، وكان قادرًا على ذلك، استحق عقوبة الموت، أما إذا لم يكن حقًا قادرًا على مدّ يد المساعدة، تحتم عليه دائمًا أن يبلغ عن اللصوص ويقتفى أثر الجريمة. ومن تهاون في ذلك، وقد نص عليه القانون، يجلد عددًا معينًا مـــن الجلدات، ويحرم الأكل بتاتـــا ثلاثة أيام متوالية. ويلاقى أصحاب البلاغ الكاذب نفس العقوبة التى يســـتحقها المبلغ ضدهم لو أنه ثبتت إدانتهـــم. هذا إلى أنه على المصريين عمومًا أن يقدموا لموظفى الحكومة كشـــفًا عن مصدر كسب كل منهم لمعاشه، والموت بالضرورة عقوبة كل من يزور فى هذا الكشـــف، أو يكون مورد رزقه حرامًا. ولقد نقل صولون فيما يقال هذا القانون إلى أثينا حينما زار مصر. ونصت القوانين على أن الموت عقوبة كل من يقتل عمدًا رجلًا حرًا كان أم عبدًا. وذلك لغرضين: أولهمـــا ردع الناس كلهم عن الإثم بعقوبة لا تختلف باختلاف حظوظهم فـــى الحياة، بل تبعًا لنياتهم فـــى أعمالهم، وثانيهما تعويد الناس على أن الأولى بهم الامتناع بتاتًا عن الاعتداء على الأحرار. ولم تســـن عقوبة الموت للآباء الذين يقتلون أبناءهم، بل فرض عليهم أن يظلوا ثلاثة أيام وثلاث ليال ســـويًا حاملين جثة القتيل باستمرار، تحت إشراف حراس

رسميين. فلم يرَ المصريون أنه من العدل أن يحرموا الحياة أولئك الذين منـوا بها على أولادهم، بل رأوا العـدل فى أن يصرفونهم عن مثل هذه الجرائم بعقوبة تبعث الألم والتوبة. أما الأبناء الذيت يقتلون آباءهم، فقد سـنوا لهم عقوبة غريبة. فإن من تثبت إدانتهم بهذه التهمة تقتضب من أجسامهم بقصب مسنون قطع بحجم الإصبع، ويشوون أحياءً على فراش من قتاد. فقد رأوا أن أشـنع جرائم الإنسـان أن يقضى بالقوة على حياة الذين منحوه الحياة. والنسـاء اللائى يقضى فيهن بالموت لا ينفذ فيهن الحكـم إذا كـنَّ حبالى قبل أن يضعن، وقد نقـل كثير من دول اليونان هذا القانون. فقد رأوا أنه من الظلم المحض أن يشـارك الجنين البرئ أمه المذنبة فى جريرة ذنبها، أو أن يقتص من اثنين لوزر واحد، أو أن يتعرض الجنين لنفس عقوبة أمه مع أنه لا يعى شـيئا البتة، فى حين كان ارتكاب الجريمة مع سـبق الإصرار، وأهم الاعتبارات كلها أنه من غيـر المفهوم أن يقضى بالموت على الجنين وهو ملك مشـاع بين الأب والأم، فى أن الوزر منسـوب إلى المرأة الحبلى وحدها. ومن الجائز أن تعتبـر القضاة الذين يبقون على حياة المجرم الذى أدين بجريمة القتل، والقضاة الذين يقضون على حياة من لا ذنب لهم البتة، سواء فى الجور. هـذه إذن بعض القوانين المتعلقة بجريمة القتل وقد اشـتهرت فوق كل شىء بإصابتها البالغة.

٧٨ ولا ينص قانونهم العسكرى على عقوبة الموت جزاء لمن يفر مـن الجندية أو يعصى أوامر قواده، بل عقوبته فقدان الاعتبار، فإذا ما

مَحَا أحدهم عاره بأعمال البطولة، رد له اعتباره كما كان. وهكذا جعل المشرع عقوبة فقدان الاعتبار أشد من عقوبة الموت حتى يعوِّد الناس على النظر إلى العار باعتباره أعظم الشرور. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، رأى المشرع أن الذين يقضي فيهم الموت لا يفيدون الحياة العامة بشيء، بينما الذين يفقدون اعتبارهم قد يكونون مصدر خير كثير لحرصهم على استرداد اعتبارهم. أما الذين يفشون الأسرار للأعداء فقد قضى القانون بانتزاع ألسنتهم. والذين يزيفون النقود، أو يطففون الموازين والمكاييل، أو يزورون الأختام. وكذلك الكتبة العموميون الذين يزورون في متون السجلات. أو يمحون شيئًا من نصوصها، أو يبرزون عقودًا مغشوشة، فقد قضى القانون بقطع كلا أيديهم جميعًا. وهكذا يحمل المجرم الذى ينزل العقاب بالعضو الذى استخدمه من ارتكاب جرمه جرحًا لا يندمل إلى يوم مماته، فيكون عظة للآخرين بما لقى من جزاء، ويصرفهم عن اقتراف أمثال هذه الجرائم. وكانت القوانين عندهم فيما يتعلق بالنساء صارمة كذلك. فقد كان الخصاء عقوبة كل من يغتصب المرأة الحرة، فقد رأوا أن المغتصب بارتكابه جريمة واحدة يقترف ثلاثا مع أشنع الآثام: انتهاك الحرمة، والزنا، وخلط أنساب المواليد. أما إذا زنى أحد بامرأة برضاها فقد قضى القانون بأن يجلد الرجل ألف جلدة، وأن يجدع أنف المرأة، فقد اعتقدوا أن المرأة التى تزيّن للمعصية الجامحة يجب أن تحرم أكبر مقومات الجمال.

٧٩ وتُنْسب قوانين المعاملات لبوخوريس، وهى تقضى من ناحية، بأن من اقترض مالا دون إيصال وأنكر الدين، يُعفى من

سداده إذا حلف اليمين على ذلك. والغرض الأول من هذا النص أن يستشعر الناس مخافة الله بتعليقهم أهمية عظمى على اليمين، ذلك بأنه لما كان من الجلىً أن الذى يحلف أيمانًا كثيرة يفقد آخر الأمر ثقة الناس فيه، فإن الجميع سيعلقون أهمية عظمى على اجتناب اللجوء إلى الحلف، حتى لا يفقدوا ثقة الناس فيهم. والغرض الثانى للمشرع من جعل الثقة بأكملها قائمة على الشرف هو تشجيع الكافة على أن يكونوا فضلاء فلا يُعرف عنهم أنهم غير أهل للثقة. هذا إلى أن المشرع رأى أنه من الظلم ألا يوثق بالذين كانوا محل ثقة دون أن يحلفوا اليمين إذا حلفوها فيما يتعلق بالدعوى نفسها. أما الذين يقرضون أموالا بإيصالات فقد قضى القانون بألا يزيد رأس المال عن طريق الفائدة إلى أكثر من الضعف.

أما عن المدين، فقد قضى المشرع بأن يكون استيفاء الدين من ممتلكات المدين وحدها، ولم يجز قط أن يكون شخص المدين فى أى ظرف من الظروف رهينة لدينه[1] فقد رأى أنه ينبغى أن تكون الأرض ملكًا للذين يعملون عليها أو الذين أخذوها هدية من أصحابها، أما الناس أنفسهم فيجب أن يكونوا ملكًا للدولة حتى تستأديهم مالها عليهم من واجبات فى الحرب والسلم جميعًا. فقد رأى أنه من السخف أن يُلقى الدائن القبض على جندى وفاء لدينه وهو يواجه الأخطار دفاعًا عن

(١) كان القانون المصرى القديم ينص على استرقاق المدين إذا لم يف بدينه، ثم ألغى هذا القانون، ولكنه أصبح نافذًا فى القرن السادس ق. م. فى عهد أمازيس، وألغى بعد ذلك إلى أن أحياه البطالمة من جديد

بلاده، فتتعرض سلامة الجميع للخطر من جراء جشع بعض الأفراد. ويبدو أن صولون نقل هذا القانون كذلك إلى أثينا وسماه قانون «تخفيف الالتزامات»[1] وأعفى بمقتضاه الآثينيين كافة من سداد الديون التى كان ضمانها شخص المدين. ويلوم البعض - بحق - أغلبية مشرعى اليونان الذين حرموا الاستيلاء على العُدَدِ والمحاريث وسائر الآلات الضرورية ضمانًا للدين، مع أنهم أباحوا ارتهان الأنفس التى تستخم هذه الآلات.

٨٥ وكان القانون الخاص باللصوص عند المصريين عجيبًا كذلك. فقد فرض على من يريد احتراف هذه المهنة أن يقيد اسمه لدى رئيس اللصوص وأن يتعاقد على أن يبلغه بأمر المسروقات فورًا. وعلى ضحايا السرقة أن يبلغوا الأمر كذلك إليه مبينين المسروقات بالتفصيل ذاكرين المكان واليوم والساعة التى ارتكبت فيها السرقة، وبهذه الطريقة يهتدون إلى كافة المسروقات بسهولة. وكان على ضحية السرقة أن يدفع ربع قيمة المسروقات لمجرد استرداد ما كان ملكًا له. ذلك بأنه لما كان من غير الممكن أن يمتنع الكافة عن السرقة فقد ابتكر المشرع طريقة يمكن بواسطتها استرداد جميع المسروقات مقابل فدية صغيرة. ويتخذ الكاهن فى مصر زوجًا واحدة أما سائر الرجال فيتخذون من الأزواج ما يشتهون. والآباء ملزمون بتربية أولادهم جميعًا[2] لزيادة تعداد السكان.

---

(١) أصدر صولون هذا القانون سنة ٥٩٤ ق . م . وأعتق بمقتضاه كل من كان استرقاقهم بسبب عدم وفاء دين.

(٢) يعنى أن وأد الأطفال بتركهم فى العراء، وقد كان داء فاشيًا فى بلاد اليونان، وكان محرمًا فى مصر.

فقد رأوا أن ذلك يزيد عمار البلاد والمدن. وهم لا يعتبرون أى ولد ابنًا غير شرعى ولو كان ابن أمة مشتراة، وبالجملة فهم يعتبرون الأب وحده مسئولا عن إنجاب الأطفال، أما الأم فتزود الجنين بالغذاء والجُنَّة، ويدعون الشجر الذى يحمل الثمر ذكرًا والذى لايحمل ثمرًا أنثى بعكس الاصطلاح اليونانى.

ويربى المصريون أبناءهم بيسر واقتصاد فوق الإدراك، فهم يقدمون لهم عصيدة مصنوعة من أى مادة رخيصة متوفرة. وسوق نبات البردى التى يمكن أن تشوى على النار، وجذور وسوق النباتات المائية، بعضها نيئ وبعضها مطبوخ والبعض الآخر مشوى. ولما كان معظم الأبناء يمضون شبابهم لحسن مناخ البلاد حفاة عراة، فإن جميع ما يتحمله الآباء من نفقات إلى أن يبلغ الابن أشده لا يزيد على عشرين دراخمة. وهذا أهم الأسباب الرئيسية التى أصبحت مصر من أجلها بلادًا ممتازة بوفرة عدد سكانها، وإلى تلك الحقيقة الأخيرة يرجع السبب فى أن مصر تضم عددًا كبيرًا من الآثار العظيمة.

٨١ ويعلم الكهنة أبناءهم نوعين من رسم الحروف، الرسم الذى يدعى «الكتابة المقدسة» والرسم الذى يستعمل فى العلوم الأكثر شيوعا[1]، وهم يبذلون جهدهم بنوع خاص فى علم المساحة والحساب. وذلك لأن النهر يغيِّر وجه الأرض كل عام بطرق مختلفة، ويثير المنازعات بين الجيران على الحدود، وليس من السهل حسم هذه

(١) كان للمصريين ثلاثة أنواع من الكتابة: الهيروغليفية، والهيراطيقية، والديمقراطية، ولكن ديودور، وشأنه فى ذلك شأن هيرودوت، لم يستطع أن يفرق بين الرسمين الأولين.

المنازعات على وجه الدقة إلا إذا اهتدى المساح إلى الحقيقة بخبرته وفنه. أما الحساب فيفيدهم فى تدبير شئونهم اليومية وفى تطبيق نظريات المساحة. والحساب إلى جانب ذلك ليس قليل النفع للذين ينصرفون إلى علم الهيئة. فاهتمام المصريين بأوضاع النجوم وحركاتها أكبر مما يوليها أى شعب آخر من الاهتمام. فهم يحتفظون بأزياج عن كل واحد منها منذ عدد لا نتصوره من السنين.

ولما كانوا شغوفين بهذه الدراسة منذ عهود سحيقة القدم، ورصدوا باهتمام عظيم حركات الأجرام ومداراتها ومواضعها وقدرة كل منها على خلق الكائنات الحية. وتأثيرها الحسن والسيِّىء فيها. فكثيرا ما تكهنوا بما سيقع للناس من حوادث، وفى غير قليل من المناسبات تنبأوا بفساد المحصول أو على العكس بوفرته أو أن الطاعون سيتفشى فى الناس والماشية جميعا. وأتاح لهم رصد النجوم لآماد طويلة علما سابقا بالزلازل والفيضانات وظهور المذنبات وجميع الظواهر التى رأى الناس أنها مما لا يُتكهن به ويدَّعى المصريون أن الكلدانيين فى بابل جالية مصرية. وأنهم مدينون بشهرتهم فى علم الهيئة للعلم الذى أخذوه عن الكهنة المصريين.

أما سائر أهل مصر فيتعلمون من آبائهم أو أقربائهم الصناعات اللازمة لضرب من ضروب الحياة المختلفة. كما أسلفنا فى ذلك القول[1]. أما القراءة والكتابة فيتعلمون منها نذرا يسيرا، وهذا لا يجرى على الجميع. بل يسرى على أولئك الذين يمارسون الصناعات بالتخصيص.

(١) راجع الفصل ٤٣، ٧٠، ٧٤

ولـم يجر العرف بينهم بأن يتربوا على الرياضة البدنية[1] والموسـيقى، ذلك بأنهم يعتقدون أن الأحداث لا يكتسبون الصحة بتمريناتهم اليومية فـي منتديات الألعاب الرياضية. بل يصيبون قوة عارضة قريبة الزوال، أما الموسيقى فقد كانت فى رأيهم عديمة الفائدة، بل ضارة إذ إنها فى الواقع تدخل التخنث على السامعين.

٨٢ وعالجـوا أجسـامهم توقيـا للأمـراض بالحقـن والحميـة والمقيّئات يتناولونها أحيانا كل يوم، وأحيانا أخرى بعد ثلاثة أو أربعة أيـام. فهم يقولون إن الجزء الأكبر من مجموع الغذاء الذى نتناوله زائد عن الحاجة. وأنه يولد الأمراض، وإذن فالعلاج الذى ذكرنا يسـتأصل المـرض ويضمن الصحة. وفى أثناء الحملات الحربية أو الرحلات إلى داخل البلاد، يعالج الجميع دون أن يُطَالَب أحد بأجر، ذلك أن الأطباء يتقاضون معاشهم من الحكومة. وهم يصفون العلاج طبقا لأصول مكتوبة، وضعتها طائفة من مشـاهير الأطباء المتقدمين، وإذا أمعن الطبيب النظر فى الأصـول المثبتة فى النصوص المقدسـة واتبعها، ولم يسـتطع مع ذلـك أن ينقذ المريض فلا جنـاح عليه، وهو براءة مما قد يتهم به. أما إذا انتهـج نهجا يناقض الأصول فيقدم إلى المحاكمة وعقوبته إذا أدين الموت، فقد رأى المشـرع أن قليلين من عساهم أن يكونوا أكثر علما من الأصول التى وضعها أئمة الصناعة وظلت مرعية منذ قرون عديدة.

٨٣ أما الحيوانات المقدسـة فى مصر، فهى ظاهرة تبدو بالطبع غريبة للكثيريـن، وجدير بالبحث والتمحيص، فالمصريون يبالغون فى

(١) أشار هيرودوت ٢، ٩١ إلى مباراة رياضية فى أخميم

تقديس بعض الحيوانات، لا وهي في قيد الحياة فحسب.. بل بعد مماتها أيضا، وهذه الحيوانات هي القط، والنمس، والكلب، والصقر، والطائر الذى يسمونه الأبيس (أبو منجل)، يضاف إليها الذئاب والتماسيح وكثير غيرها مما يشاكلها، وسأحاول أن أذكر أسباب هذه العبادة بعد أن أتحدث أولا باختصار عن هذه الحيوانات نفسها، يوقف أولا على كل نوع من الحيوانات المقدسة أرض تكفي غَلَّتُها للعناية بها وتغذيتها، فالمصريون يوفون النذور من أجل أبنائهم إذا نجوا من مرض فيحلقون رءوسهم ويزنون الشعر بفضة أو ذهب ويهبون زنته للذين يقومون على خدمة الحيوانات المذكورة، والذين يرعون الصقور يقطعون لها اللحم شرائح، وينادونها بأعلى صوتهم، ويظلون يلقون الشرائح إليها وهي محلقة إلى أن تلتقطها، أما القطط والنموس فينبسون لها ويطرحون على الأرض الخبز الملوَّق باللبن، أو يقطعون لها السمك النيلي ويطعمونها إياه نيئا، وهكذا يقدِّمون الغذاء المناسب لكل نوع من الحيوانات الأخرى، ولا يتخلى المصريون مطلقا عن تأدية شعائر هذه الحيوانات، ولا يخجلون من أن يراهم الناس يؤدونها، بل على العكس، يتيهون بها كِبرا كما لو كانوا يؤدون أقدس شعائر الآلهة. ويطوِّفون في المدن والقرى حاملين شارات خاصة، وعندما يرى المارة من بعيد لأى حيوان تقام الشعائر، يخرون له سجدا ويتعبدون، وعندما يموت أحدُ هذه الحيوانات المذكورة، يلفونه في سندس ويضربون صدورهم معولين، ويحملونه ليحنط، وبعد أن تعالج الجثة بزيت الأرز وببعض المواد

الأخرى التى لها خاصة إكسابها رائحة ذكية، وحفظها وقتا طويلا، يضعونها فى تابوت مقدس.

ومن يقتل عامدا أحد هذه الحيوانات يلاق الموت، أما من يقتل قطا أو أبامنجل فسواء قتلها عامدا أم غير عامدٍ فالموت نصيبه على كل حال، إذ يهجم العامة على المذنب ويسومونه سوء العذاب دون محاكمة فى بعض الأحيان، وإذن فكل من يرى واحدا من هذه الحيوانات ميتا، يبتعد إلى مكان قصى ويصيح ويولول مشهدا الناس، خوفا من مثل هذا المصير، على أنه عثر على الحيوان وقد نفق، ولقد امتزج الخشوع لهذه الحيوانات بقلوب العامة وظلت نفوسهم متشبثة بأمر عبادتها إلى حد أنه فى الفترة التى سبقت منح الرومانيين مليكهم بطليموس لقب «صديق روما»، حدث أن قتل أحد الرومان قطة، فهجم العامة على بيت الجانى، بالرغم من أن الجمهور كان يبذل قصارى جهده لاسترضاء البعثة الموفدة من إيطاليا، وكان لخوفه شديد الحرص على ألاّ يزودها بذريعة واحدة للشكوى أو إعلان الحرب عليهم، فلم يُجْدِ الموظفون الذين أرسلهم الملك للتوسط، ولا ما كان يستشعره الجميع نحو روما من خوف، فى نجاة الرجل من العقاب، هذا مع أنه ارتكب هذه الفعلة غير عامدٍ، وهذه القصة التى رويناها لم تأتنا عن طريق السماع، فقد شاهدنا نحن هذه الواقعة أثناء زيارتنا لمصر.

٨٤ وقد تبدو هذه القصة للكثيرين غير معقولة وقريبة من الخرافة، وستبدو القصة التى ستعقبها أكثر غرابة، إذ يحكى أن القحط

هصر المصريين مرة فصاروا فى عوزهم يأكلون بعضهم بعضا، ولكن أحدا منهم لم يتهم- مجرد تهمة- بتناول أحد الحيوانات المقدسة، بل فضلا عن ذلك، فإن البيت الذى يُعثر فيه على كلب ميت، يحلق سكانه جميعا أجسامهم كلها ويحدّون. وأشد من هذا غرابة، أنه إذا اتفق أن كان مخزونا فى الغرفة التى مات فيها واحد من هذه الحيوانات نبيذ أو خبز، أو شىء ما من ضرورات المعيشة، فإنهم لا يفكرون مطلقا فى استعماله بعد ذلك فى غرض ما. وإذا كانوا فى حملة حربية فى مكان ما من بلاد أجنبية، افتدوا القطط والصقور وأحضروها إلى مصر، وهذا دأبهم حتى لو كانت مؤنهم على وشك النفاد.

ومن السهل وصف ما يصنعون هنا للعجل أبيس فى منف، والعجل منيفيس فى هليوبوليس والجدى فى منديس والتمساح فى بحيرة موريس والأسد الذى يبقونه فى المدينة التى تسمى لينوبوليس (مدينة الأسد) وكثير غيرها، ولكن من الصعب أن يصدق ما تقول من لم ير ذلك رأى العين.

فالمصريون يبقون هذه الحيوانات فى حُجُرات مقدسة، ويقوم على خدمتها كثيرٌ من الأعيان، ويقدمون لها أفخر الطعام، وهم يدأبون على تزويدها بالقمح المطحون أو المجروش المغلىّ فى اللبن، وكل أنواع الفطير الممزوج بالعسل، ولحم الإوز مطبوخا ومشويا، أما الحيوانات آكلة اللحوم، فيصيدون لها طيورا كثيرة ويلقونها إليها. وبالجملة فهم يبذلون قصارى جهدهم فى تقديم أفخر الطعام إليها،

ولا ينفكون يهيئون لها الحمامات الساخنة. ويعطرونها بأحسن الطيب، ويحرقون لها جميع أنواع البَخُور الذكى، ويوفرون لها أغلى السُررُ والحلى النفيسة، ويفرغون وسعهم لتمكينها من معاشرة بعضها البعض وفق سنن الطبيعة، فيبقون مع كل واحدٍ من هذه الحيوانات أحلى الإناث من نوعه، ويسمونها السرايا، ويبذلون فى خدمتها أبهظ التكاليف وأشق الخدمات، وإذا مات أحد هذه الحيوانات حزنوا عليه حُزن من ثكلوا أولادهم الأعزاء.. ولا ينفقون على دفنه قدر طاقتهم بل يسرفون فى ذلك منفقين أكثر مما ملكت أيديهم بكثير. فقد حدث- مثلاً- بعد موت الإسكندر، وبعد أن صارت مصر فى حوزة بطليموس ابن لاجوس مباشرة، أن أسن العجل أبيس ونفق. فأنفق الموكلون به فى دفنه كل الأموال الطائلة التي كانت قد تكدست لكفالته واقترض فوقها بطليموس خمسين طالنطا من الفضة. وأدهى من ذلك أن بعض الموكلين بهذه الحيوانات أنفق على دفنها فى أيامنا هذه ما لا يقل عن مائة طالنط.

٨٥ وينبغى الآن أن أضيف إلى ما تقدم وصف باقى الحفلات التى تقام للثور المقدس الذى يسمونه أبيس. فعندما ينفق هذا الثور ويودع قبره فى حفل رائع، يبحث الكهنة القائمون على هذا الأمر عن عجل فى جسمه سمات مشابهة لسمات سلفه الراحل. وعندما يقعون على بغيتهم، يرفع عن الشعب الحداد. ويقود الكهنة المختصون العجل إلى نيلوبوليس (مدينة النيل) Nilopolis أولا حيث يعلفونه

أربعين يوما، ثم يودعونه غرفة مذهبة من سفينة حكومية ويزفونه- كأنه إله- إلى معبد هيفايستوس في منف، وفي هذه الأيام الأربعين يسمح للنساء وحدهن برؤيته فيقفن في مواجهته ويرفعن أثوابهن، ويكشفن عن عوراتهن. أما في سائر الأيام فقد حظر عليهن التوجه إلى حضرة هذه الإله.

ويقول البعض إن السبب في تقديس الثور أن روح أوزيريس انتقلت بعد موته إلى الثور، ولذلك مازالت إلى يومنا هذا تنتقل دائما إلى سلالة هذا الثور أثناء تجلي أوزيريس، ويرجع آخرون السبب إلى أنه عندما مات أوزيريس على يد طيفون، جمعت إيزيس أجزاء جسمه في بقرة من الخشب، ملفوفة في قماش من التيل الرفيع، ومن هنا سميت المدينة عندهم بوسيريس[1].

وهناك روايات كثيرة أخرى حول أبيس، ولكني أعتقد أن الأمر يطول بنا لو سردناها كلها.

إن طقوس المصريين في عبادة الحيوانات غريبة لا يمكن تصديقها، وهي مصدر حيرة كبيرة لمن يبحثون عن أسبابها وأصولها. ولكهنتهم في هذا الأمر عقيدة سرية، أسلفت ذكرها فيما أوردته عن معتقداتهم الدينية، أما سواد المصريين فلهم في عبادتهم أسباب ثلاثة: أما أولها فخرافي محض أليق بسذاجة العصور المتقادمة، فيقولون إن الآلهة التي وجدت منذ البدء كانت قليلة العدد، فغلبها على أمرها مَرَدَة

(١) البقرة في اليونانية «بوس» ولكن بوسيريس معناها مدينة أوزيريس وهناك مواضع كثيرة بهذا الاسم

الأرض بكثـرة عددهم وبَغْيهم. فاتخذت الآلهة صور بعض الحيوانات، فنجت بهذا الأسـلوب من توحشـهم وبطشـهم، ولما سيطر الآلهة بعد ذلـك على كل ما فى العالم، قدسـوا الحيوانات التـى كانوا قد اتخذوا صورها، وعلموا الإنسـان أن يرعاها ببـذخ فى حياتها، ويودعها القبور بعد مماتها. عرفانا منهم بصنيع الحيوانات التى كانت فى البدء سـببا فى سلامتهم، وثانى أسـبابهم أن المصريين فى العصور القديمة هزمهم جيرانهم فى مواقع عديدة لانعدام النظام فى جيشهم، ففكروا أن يحملوا أعلامـا على رأس كل فرقـة. وجعلوا هذه الأعلام على صور الحيوانات التى تُعبَدُ الآن، وكان القادة يحملونها مثبتة فى أسنة رماحهم، فعرف كل فرد- بهذه الطريقة- إلى أىّ فرقة ينتمى. ولما كان ما نتج عن ذلك من حسن النظام قد ساعد كثيرا على انتصارهم، فقد ظنوا أن الحيوانات هى السـبب فى إنقاذهـم، وأرادوا أن يعرفوا لها هذا الصنيع، فسـنوا سـنة ألا يقتلوا واحدا من الحيوانات التـى اتخذوا صورتها يومئذ، بل يعبدونها ويولونها ما وصفنا من رعاية وتعظيم.

٨٧ وثالـث ما يأتون به من أسـباب تقديس الحيوانات، هو ما يؤديـه كل نـوع من خدمات فى سـبيل المجتمع الإنسـانى من ناحية والإنسان من ناحية أخرى، فالبقرة- مثلا- تلد الثيران التى تفلح الأرض وهى نفسـها تحرث الأرض الرخوة، أما الأغنام فتلد مرتين فى السنة، وتهيئ لنا بأصوافها أسـباب الوقاية والزينة، وتعد لنا بألبانها وجبنها

طعاما شهيا وفرا. أما الكلب فمفيد فى الصيد وفى حراسة الإنسان، ولذلك يصور المصريون الإله الذى يسمونه أنوبيس على هيئة إنسان له رأس كلب إشارة إلى أنه حارس أتباع أوزيريس وإيزيس، ويقول البعض إن الكلاب قادت إيزيس فى بحثها عن جثة أوزيريس، وذادت عنها الحيوانات المفترسة وعابرى السبيل، وساهمت- برّا بها- فى البحث عن جثة أوزيريس نابحة طوال الوقت، ومن هنا جرت العادة بأن يتقدم الكلاب الموكب فى عيد إيزيس، فهذا شاهدٌ يأتى به واضعو هذه السنّة على المنّة التى أسداها الحيوان فى قديم الزمان، وللقطط استعداد خاص لإبادة الناشر القتّال وغيره من الزواحف السامة. أما النمس فيترصد للتماسيح حتى تضع بيضها فيهشمه، وهو يقوم بهذا العمل بعناية واهتمام دون أن يكون له أية فائدة من ورائه، ولو لم يكن هذا دأبه لأصبح النهر غير صالح للملاحة لكثرة ما يفقس فيه من التماسيح. ويقتل النمس أيضا التماسيح نفسها بطريقة غريبة لا يمكن تصورها. فعندما يرقد التمساح على شط النهر فاغرا فاه، يتمرغ النمس فى الوحل ويقفز من فم التمساح إلى جوفه، ثم ينهش أحشاءه بسرعة وينفذ إلى الخارج سالما، تاركا التمساح جثة هامدة فى الحال. أما فى الطير فأبو منجل يفيد فى إبادة الحيات والجراد واليرقات، والصقور، تفيد فى إبادة العقارب والحيات المقرّنات والحشرات الصغيرة السامة الشديدة الفتك بالإنسان.

ويقول البعض إن تقديس الصقور يرجع إلى أن العرَّافين يستخدمونها فى التنبؤ للمصريين بالغيب، بينما يقول البعض الآخر إنه فى العصور المتقادمة حمل الصقر للكهنة فى طيبة كتابا مربوطا بخيط يشتمل على طقوس خدمة الآلهة وعبادتها، ومن هنا كان الكهنة المقدسون يضعون خيطا أحمر وريشة صقر فوق رءوسهم، ويقدس أهل طيبة النسر ويعتبرونه طيرا ملكيا جديرا بزيوس.

ويؤله المصريون الجدى كما يقدّس اليونان بريابوس[1] Priapus من أجل ذَكَره فيما يقال، لأن الجدى شديد الميل للجماع، ويلقى ذكره ما هو أهل له من تعظيم، ذلك بأنه السبب الرئيسى فى إنجاب مملكة الحيوان. وبالجملة، فليس ذلك وقفا على المصريين وحدهم، فشعوب غير قليلة أخرى تقدس الذكر فى طقوسها، ذلك بأنه السبب فى ظهور الكائنات الحية.

والكهنة الذين يخلفون آباءهم على الوظائف الكهنوتية يدخلون بادئ ذىبدء فى دين هذا الإله. ولهذا السبب عبد الناس- فيما يقال- بأن[2] pan والساتير[3] satyri، ولذلك تقام لها فى المعابد غالبا تماثيل منتصبة الذكر قريبة من هيئة الجدى، لأن المشهور عن هذا الحيوان أنه بالغ الشهوة للجماع، فالمصريون بتصويرهم هذه الآلهة على هذا النحو

(١) بريابوس: إله القوى الطبيعية المخصبة فى الإنسان والحيوان والنبات، وكان اليونانيون يصورونه فى هيئة جدى.

(٢) إله الماشية والرعاة عند اليونانيين ويمثلونه فى هيئة رجل له قرنان ورجلا جدى

(٣) يختلف الساتير عن البان فى أنه لا قرون له

يقدمون الشكر على كثرة نسلهم، وهم يعبدون الثيران المقدسة وأعنى هنا أبيس ومنيفيس، كآلهة كما أمر أوزيريس لسببين: فائدتها للزراعة، ولأن شهرة الوقوع على الحروث تنتقل بفضل مجهوداتها من السلف إلى الخلف على طول الزمان.

ولقد كانت التضحية بالثيران الضاربة إلى الحمرة جائزة لما يعتقدون من أن طيفون الذى تآمر ضد أوزيريس ولاقى جزاءه على يد إيزيس لقتله زوجها، كان لونه ضارباً إلى الحمرة، ويقال إن الملوك فى العصر القديم كانوا يضحون على قبر أوزيريس بمن كان على لون طيفون من الرجال[1] وقليل من المصريين من يضرب لونهم إلى الحمرة، أما أكثر الأجانب فعلى هذا اللون، ولذلك شاعت بين اليونانيين قصة قتل بوسيريس للأجانب. ولكن لفظ بوسيريس ليس علما على ملك.. بل هو لفظ يطلق على أوزيريس الذى كان يسمَّى بوسيريس فى لغة أهل البلاد.

ويقال إن الذئاب قدِّست لشدة شبهها بالكلاب، فالذئب والكلب يختلفان اختلافا يسيرا فى الطبائع ويلدان بالتزاوج فيما بينهما. وللمصريين فى تقديس هذا الحيوان سبب آخر ولكنه خرافىّ، فهم يقولون إنه فى العصر القديم، لما أزمعت إيزيس مع ابنها حورس أن تناهض طيفون، حدث أن انبعث أوزيريس من العالم السفلى فى صورة ذئب ليساعد ابنه وزوجه، فلما قتل طيفون أشار هازموه بتقديس الحيوان الذى استتبع ظهورُ وجهه النصر، ويذهب البعض إلى أنه لما

(١) أنكر هيرودوت ٢، ٤٥ أمر تضحية المصريين بالرجال، ولعله لم يشاهدها أثناء إقامته، ولكن نحر الأسرى للآلهة مصور فى آثار الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة

سـار الأحباش بجيش إلى مصر تألفت رعالٌ كبيرة من الذئاب وتعقبت الغزاة إلى خارج البلاد فيما يلى المدينة التى تسمى إلفنتين ولذلك سمى هذا الإقليم «إقليم الذئاب» وأولوا هذا الحيوان ما ذكرنا من تقديس.

٨٩ بقـى علينا أن نتحدث عن تقديس التماسـيح، فقد حار أكثر الكتاب فى أمر هذه العبادة. فهذه الضوارى تفترس الإنسـان، فكيف يسنّ القانـون عبادتها وهى توقع هذه الأضرار الشـنعاء؟.. ويرد المصريون على ذلـك بأن النيل وحده لا يؤمن سـلامة البلاد، بـل يؤمنها أكثر من النيل ببعيـد ما فيه من تماسـيح. وهكـذا لم يجرؤ قراصنة بـلاد العرب وليبيا على عبور النيل خوفا من ضواريه الكثيرة، وما كان هذا ليحدث لو شُنّت الحرب على التماسـيح وأبيدت عن آخرها بما ينصبه الصيادون من شباك فى النهر، وثمة رواية أخرى تحاك حول هذه الحيوانات، إذ يزعم البعض أن أحد الملوك القدماء المسـمى مينا تعقبته كلابه الخاصة، فاحتمى منها فى البحيرة التى تسـمى مويريس وهناك انتشـله تمساح بطريقة عجيبة، وحمله عَبر البحيرة إلى الضفة المقابلة، وأراد الملك أن يعرف للحيوانات صنيعـه فى إنقاذه. فأنشـأ مدينة فى المنطقة المجاورة للبحيرة وسـمّاها كروكوديلـو بوليـس (مدينة التماسـيح) وأوصى أهل البـلاد بتقديس هذه الحيوانـات كآلهة. ووقف البحيرة على إطعامها وشـيد هناك كذلك قبرا لنفسه على شـكل هرم ذى أربعة أضلاع، وابتنى أيضا قصر التيه[1] الذى نال إعجاب الجميع؛ ويقص المصريون روايات أخرى مثل هذه فيما يتعلق بسائر عباداتهم، ولكن الأمر سيطول بنا إذا سردناها واحدة فواحدة.

(١) ذكر فى الفصل ٦١ أن بانى قصر التيه هو منديس

أما أن المصلحة العامةكانت رائدهم فيما التزموا من عادات فأمر جليّ للكافة من امتناع بعضهم من تعاطى كثير من المأكولات التى تنتج فى إقليمهم، فقد كان بعضهم يمتنع بتاتا من تذوق العدس أو الفول أو الجبن أو البصل أو غيرها من أنواع المأكولات بالرغم من أنها كلها متوفرة فى مصر، وبذلك يتضح لنا أن الناس يجب أن يتعلموا كيف يحرمون أنفسهم بعض المأكولات المفيدة، لأنه إذا تعاطى الجميع كافة أصناف المأكولات فلن يفى صنف واحدٌ من المستهلكات بحاجتهم، ويدلى بعض الناس بأسباب غير التى ذكرنا فيزعمون أنه فى عهد الملوك الأقدمين كثيرا ما ثار الشعب وتآمر بحكامه، فقسَّم أحدُ الملوك- وكان فذ الذكاء- البلاد إلى أقاليم متعددة، وأوحى إلى سكان كل إقليم على حده أن يصيدوا حيوانا خاصا، أو يمتنعوا من تذوق مأكل بعينه، حتى لا يستطيع المصريون أبدا أن يتحدوا معا، فقد كانت كل فئة منهم تعظم معبودها وتزدرى ما يقدسه الآخرون، وتتبين أغراض هذا الملك من نتجائها، ذلك أن كل الذين يعيشون فى أقاليم متجاورة على اختلاف شديد فيما بينهم، وقد أحفظهم التعدى على ما ذكرنا من عاداتهم.

ويدلى البعض بسبب آخر لعبادة الحيوانات فيقولون إنه فى البدء لما أقلع الناس عن حياة التوحش، وعاشوا فى جماعات، كانوا يأكلون بعضهم بعضا، ويقتتلون وكانت الغلبةدائما للأقوى على الأضعف، ثم جمع الذين أعوزتهم القوة شملهم بدافع من مصلحتهم الخاصة، واتخذوا لهم شعارا هو أحد الحيوانات التى قدَّست فيما بعد، والتفت الفئة المستضعفة حول هذا الشعار،وكوّنت كتلة يتعذر

على المتطاولين امتهانها ولما انتهج الآخرون أيضا هذه الخطة نفسها، انقسم الشعب إلى جماعات، وأصاب الحيوانُ الذىكان سبب سلامة كل جماعة من هذه الجماعات تقديسا إلهيا لما أسداه إليها من جزيل النعم. ولذلك تصيد كل جماعة من الجماعات المختلفة فى مصر إلى يومنا هذا الحيوان الذى قدّس عندها منذ البدء. وبالجملة فالقول بأن المصريين أكثر الناس قاطبة استعدادا للاضطلاع بزمام أى عارفة، وهم يعتقدون أن عرفان الصنيع لفاعليه ملاذ الحياة الأكبر، ذلك بأنه من الجلىّ أن الناس كلهم سيحرصون خاصةعلى بذل الصنيعة لأكثر من يرون من الناس حفاظا للمعروف.

ويبدو أن هذه هى الأسباب نفسها التى يخشع المصريون من أجلها لملوكهم ويتعبدون لهم كأنهم آلهة حقا، معتقدين أنه لولا العناية الآلهية ما أوتى الملوك السطان على كل شىء، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى رأوا أن الذين يريدون الخير ويستطيعون تأديته لهم نصيب من الطبيعة الإلهية. وبعد فإذا كنت قد أفضت فى الحديث عن الحيوانات المقدسة فى مصر، فقد بحثت على أى حال بالتفصيل أعجب ما أثار دهشة الناس من الشعائر فى مصر.

وإن من يطلع على شعائر المصريين الجنائزية يعجب أشد العجب لغرابة عاداتهم فيها، فعندما يموت أحدهم يلطخ جميع معارفه وأصدقائه رءوسهم بالطين ويطوّفون بالمدينة نادبين إلى أن توارى رفاته فى القبر، ويمتنعون من الاستحمام وتعاطى النبيذ أو أى غذاء لذيذ، ولا يلبسون أى رداء زاهى اللون. وهناك ثلاث مراتب للدفن: الأولى

باهظة التكاليف، والثانية متوسطة، والثالثة متواضعة جدا. والمقول إن تكاليف المرتبة الأولى طالنط من الفضة وتكاليف الثانية عشرون منا وتكاليف الثالثة مبلغ زهيد جدا.

والآن فالذين يقومون على أمر الجثث- وهم صناع ورثوا مهارتهم عن جدودهم- يعرضون على أهل المتوفى قائمة بتكاليف كل مرتبة من مراتب الدفن، ويسألونهم عن الطريقة التى يريدون أن يهيئوا الجثة عليها، وبعد أن يتفقوا على جميع التفاصيل، ويتسلموا الجثة يعهدون بها إلى طائفة اختصت بهذا الأمر وفق التقاليد المرعية، فيضع من يقال له «الكاتب» الجثة أولا على الأرض، ويحدد على العطف الأيسر المقدار الواجب شجه، وبعد ذلك يأخذ من يسمونه (الجرّاح) حجرا حبشيا ويشج اللحم طبقا للأصول المرعية، ثم يولى الأدبار فى التو مسرعا، فيقتفى الحاضرون أثره ويقذفونه بالأحجار ويلعنونه كأنهم يلصقون الجرم به، فقد كانوا يعتقدون أن اللعنة تحل بكل من يحمل بالقوة على جثة واحد من أفراد قومه إما بجرحها أو على العموم بإدخال أى عطب عليها.

أما الذين يسمونهم «المحنطين» فهم أهلٌ لكل تعظيم وتقدير، ويختلطون بالكهنة، ويباح لهم بصفتهم مُطَهّرين الدخول فى المعابد، وعندما يجتمعون لتجهيز الجثة التى سبق شجها، يدخل أحدهم يده فى الشج إلى الجوف ويخرج كل ما فيه ما عدا الكليتين والقلب، بينما ينظف آخرُ الأحشاء واحدة فواحدة بغسلها بخمر البلح ومحلول التوابل، وبالجملة فكل الجسم يجهز أولا بزيت الأرز وبعض

المستحضرات الأخرى مدة تزيد على ثلاثين يوما، ثم يجهز بالمر والقرفة وموادَّ من خاصتها أن تحفظ الجثة وقتا طويلا، وتضفى عليها النضارة أيضا، وعندما يتم تجهيز الجثة يسلمونها إلى أهل المتوفى، وقد أبقوا على كل عضوٍ من أعضاء الجسم حتى إن الأهداب والحواجب تظل كما كانت ولا تتغير هيئة الجسم مطلقا، بل يمكن التعرف إلى ملامح شكله، ولذلك يحتفظ كثيرٌ من المصريين بجثث أجدادهم فى غرف فخمة، فينظرون وجها لوجه إلى أسلافهم الذين قضوا نحبهم قبل أن يولدوا هم أنفسهم بأجيال عديدة، وهكذا عندما يرون جرم كل منهم وتفصيل جسمه، وقسمات وجهه يستشعرون إحساسا غريبا كما لو كانوا قد عاشوا مع الذين يتطلعون إليهم.

٩٢ وعندما تجهز الجثة للدفن يخطرُ أهل الميت القضاة وأقرباء المتوفى وأصدقاءه أيضا بيوم الجنازة، ويعلنون للملأ أنه- وهنا يذكرون اسم المتوفى- على وشك عبور البحيرة، ثم يجتمع اثنان وأربعون من القضاة ويأخذون مجلسهم فى بناء نصف دائرى فى الجانب البعيد من البحيرة، ويُطْلَقَ فى الماء القارب «بارس»[1] الذى أعده من قبل الذين يضطلعون بهذه الأمور، ويكون القارب تحت إمرة الملاح الذى يسميه المصريون فى لغتهم خارون[2]، ولذلك يدّعي المصريون أن أورفيوس أبحر إلىمصر فى الزمن القديم، وشاهد هذه السنة فزور الأسطورة الدائرة حول العالم السفلى، ناقلا بعضها مما شاهد ومختلقا البعض الآخر من ذات نفسه.

(١) الكلمة مصرية قديمة بمعنى قارب أو زورق وقد دخلت فى اللغة اليونانية

(٢) هذه هى التسمية اليونانية، وقد أخذها الرومان ولم يكن «خارون» معروفا لدى المصريين، وإنما يقابله فى الأساطير المصرية «الرجل الذى ينظر إلى الوراء»

وسأتحدث عن هذه المسألة بالتفصيل فيما بعد، وعلى أى حال فبعد أن يطلق القارب فى البحيرة، ولكن قبل أن يوضع فوقها النعش الذى يضم رفات الميت، يخوّل القانون لمن شاء حق اتهام المتوفى، فإذا تقدم أحدٌ بتهمة أثبت بها أن المتوفى كان يحيا حياة ضالة، أصدر القضاة حكمهم علانية فيحرم الميت حق الدفن المتواضع عليه، وإذا ظهر أن المدعى اتهم المتوفى بغير وجه حق، وقع المدعى تحت طائلة عقوبات كبيرة، وإذا لم يتقدم أحدٌ بتهمة، أو إذا تقدم واحد بتهمة وثبت أنه متجنّ، ينتهى أهل الميت من حدادهم، ويؤبّنون الميت، وهم على عكس اليونان، لا يذكرون شيئا عن مولد المتوفى، معتقدين أن المصريين كلهم سواء فى شرف المحتد، ولكنهم يذكرون تربيته وتعليمه منذ طفولته، ويثنون على تقواه وعدله وضبط نفسه وسائر فضائله عندما بلغ مبلغ الرجال، ثم يدعون آلهة العالم السفلى أن تحشره فى زمرة الأتقياء، أما الجمهور فيهلل مؤمِّنا ويشيد بعظمة المتوفى بصفته واحدا من أولئك الذين سيخلدون إلى الأبد فى العالم السفلى فى صحبة الأتقياء.

والذين يملكون مرافق خاصة يضعون الجثة فى مكانها المعين، أما الذين لا مرافق لهم فيبتنون سقيفة جديدة فى خاصة بيتهم ويضعون النعش فيها منتصبا مستندا إلى أمتن حيطانها، أما الذين حرموا مراسم الدفن إما لأن تهما قد ثبتت عليهم، أو لأن أجسامهم كانت رهينة ديون لم يؤدوها، فيدفنون فى خواص بيوتهم، ويحدث أحيانا أن يُصيبَ

أحفادهم ثروة، فيوفون بالتزامات موتاهم، ويبرؤونهم من التهم المحمولة عليهم، ويقيمون لهم جنازة فخمة.

٩٣ وأقدس الواجبات المرعية عند المصريين أن يُروا وقد أولوا آباءهم وأجدادهم من التقديس بعد انتقالهم إلى منازلهم الأبدية أكثر مما كانوا يولونهم وهم في قيد الحياة. ومن عاداتهم أن يقدّموا جثث آبائهم الراحلين رهنا لدين، ويلاحق العار الأكبر الذين لا يوفون هذا الدين، فيحرمون مراسم الدفن بعد موتهم.

ولنا أن نعجب بحق بالذين سنوا هذه التقاليد، ذلك بأنهم اجتهدوا أن يُشربوا الناس البر ونبل الأخلاق لا عن طريق صلات الأحياء فحسب.. بل وبقدر ما وسعت طاقتهم عن طريق دفن الموتى وتجهيزهم، فاليونانيون قد لجأوا إلى الخرافات الموضوعة والقصص المجرحة لتدعيم الاعتقاد بأن التقي سيلاقى ثوابه، والشقي عقابه، ومهما يكن من شيء، فإن هذه الأساطير، لم يكن لها من القوة ما يمكنها من صرف الناس إلى الحياة الفاضلة، بل بالعكس كانت موضوع سخرية الأشرار، وقوبلت بالزراية التامة، بينما المسألة عند المصريين لا تدخل في باب الخرافة، بل هي حقيقة سافرة أن الشقي يلاقى عقابه، والتقي ثوابه، وكلاهما يذكر يوميًا بواجباته، وهكذا نحصل على أحسن وأفيد تقويم للأخلاق، وعندي أن أحسن القوانين ليست التي يصبح الناس بفضلها أغنياء جدا.. بل هي القوانين التي يصبحون بفضلها أنبل الناس أخلاقا وأكثر المواطنين ولاء.

٩٤ وينبغـــي أن نتحدث كذلك عن المشـــرعين المصريين الذين سنوا هذه التقاليد المبتكرة الغريبة. فيحكى أنه بعد أن توطدت الحياة في مصر في العصر القديم، وقد اســـتقرت فـــي رواية البعض في عصر الآلهة والأبطال، كان منيفيس[1] أول من أقنع الشعب بالامتثال لقوانين مكتوبـــة، وقـــد كان في ذاته رجلا عظيما، وفي حياته أكثر من نشـــيد بذكرهـــم أريحية، فادعى أن هرمـــس أوحى إليه بهذه القوانين، لتكون مصـــدر نِعم عظيمـــة، تماما كما كان الأمر عند اليونـــان فيما يقال، إذا ادعّى مينوس في أقريطش وليكرجوس[2] بين الأسبرطيين أنهما قد تلقيا قوانينهـــم، أولهما تلقاها من زيوس، وثانيهما من أبوللو، ويؤثر أن هذا الضرب من الحيلة قد جاز على شـــعوب كثيرة غيرها وكان مصدر أنعم كثيـــرة للذين آمنوا، ويحكى أن زاثراوســـتيس[3] ادعى بين الآريين أن الـــروح الخيّرة حبته بالقوانين، وكذلك عزاها زالموكســـيس zalmoxis عند الأقوام المســـماة بالجتيين[4] Getar إلى الإهتهم المشتركة هيستيا Hdstia وعند اليهود عزاها موسى إلى الإله الذى يدعونه إياو. وهؤلاء، إما أنهم قدّروا أن الفكرة التى يكون من شأنها أن تفيد جمهرة الناس، فكرة رائعة والإهية تماما، وإما أنهم رأوا أن الشعب يكون أكثر خضوعا

(١) هو فيما يظهر مينا الذى ورد ذكره فى الفصل ٤٣، ٤٥

(٢) هو مشروع إسبرطة الأكبر، وقد أعاد بتشريعاته توزيع الثروة فى إسبرطة ووضع لها نظامها الحربى والمدنى. والمرجح أن ذلك كان حوالى سنة ٨٢٥ ق.م.

(٣) زرادشت

(٤) يسكنون جنوب نهر الطونة، وظهر بينهم زالموكسيس وبشرهم بخلود الروح

للقوانين لو اتجه ببصره صوب عظمة وقوة الذين يُعزى إليهم وضع هذه القوانين، ويقول المصريون إن ثانى المشرعين هو ساسوخيس[1] sasychis وهو رجل يمتاز برجاحة العقل، وقد أضاف إلى القوانين القائمة قوانين جديدة، ونظم شعائر الآلهة بحرص فائق، ووضع علم الهندسة، وعلم أهل البلاد مراقبة النجوم، ورصدها. وثالث مشرعيهم فيما يقولون سيسوسيس sesoosis[2] ولم يكتف بالقيام بأبهر الأعمال الحربية المصرية، بل سنَّ تشريع الطبقة المحاربة. ووضع كل ما يتبع ذلك من أصول الحملات الحربية، ورابع المشرعين هو الملك بوخوريس[3] وكان عاقلا امتاز بدهائه، فنظم جمع شئون الملك وشرع بالتفصيل أصول المعاملات الخاصة، وقد كان حكيما فى قضائه إلى حد أن كثيرا من أحكامه مازال لفرط سداده مأثورا إلى يومنا هذا، ويضيفون إلى ذلك أنه كان أضعف الناس بِنْيةً وأجشع الملوك قاطبة نفسا.

٩٥ وبعد بوخوريس صرف الملك أمازيس همّته فيما يقال إلى القانون، فهو الذى نظم فيما يزعمون أصول حكومة الأقاليم، وقواعد الإدارة المصرية عامة، والمأثور أنه كان بالغ الحكمة رحيم الطبع عادلا.

وقد اجتباه المصريون للملك من أجل هذه الصفات برغم أنه لم ينحدر من أصل ملكى، ويحكى أن الإليائيين وكانوا شديدى الاهتمام بالمباريات الأوليمبية، أرسلوا وفدا يسأله كيف يمكن أن تكون المباريات

(١) يرى البعض أنه الفرعون شيب- سيس- كاف من الأسرة الرابعة

(٢) مذكور فى الفصل ٤٥، ٦٥، ٧٩

(٣) راجع الفصل ٥٣ وما بعده

علـى غاية من النزاهة؟ فأجاب «إذا لم يشـترك فى المباريات أحد من الإليائيين[1]».

وبالرغم من أن بوليقراطيس[2] Polycrates طاغية ساموس كان قد عقد معه معاهدة صداقة، إلا إنه حينما أخذ يسـوم المواطنين والأجانب الذين نزلوا بسـاموس العَسْفَ، أرسـل إليه أمازيس أولا فيما يقال وفدا يدعـوه إلى الترفق، ولما لم يعره بوليقراطيس التفاتا، كتب إليه رسـالة يقطع فيها ما بينهما من صلات الصداقة والمودة، ذلك أنه لم يُرد لنفسه السـوء وشـيكا. فقد كان يعلم علم اليقين أن المصيبة لا تلبث أن تحيق بمـن يقيم مثل هذا الحكم الاسـتبدادى. ويقال إنه نال إعجاب اليونان لنبله ولأن ما أنذر به بوليقراطيس تحقق عاجلا، ويقال إن دارا أبا إجزر كسـيس كان سـادس من تفقهوا فى القوانين المصرية، فقد أسخطه ما استهدفت له المعابد المصرية على يد سلفه الملك قمبيز من عبث، وكان شديد الرغبة فى أن يحيا حياة فاضلة تقية، فصحب الكهنة المصريين أنفسهم وأخذ عنهم علم الكلام والتاريخ المثبت فى الكتب المقدسة، ولما تعلمنها سـمو نفس الملوك القدماء، وبرّهـم برعيتهم، احتذى حذوهم، وهكـذا أصاب من التكريم قدرا عظيما إلى حـد أنه الوحيد بين الملوك جميعـا الذى أطلق عليه المصريون لقب إله وهـو فى قيد الحياة، ولما قضى نحبه، كان نصيبه من التكريم مثل نصيب الملوك الأقدمين الذين حكموا طبقا لنصوص القانون.

(١) ذكر هيردوت٢، ١٦٠ هذه القصة بالتفصيل ولكنه عزاها إلى الملك بـاميس

(٢) من أشد طغاة اليونان بطشا، وكان من رعاة الأدب والعلم، وقتل غيلة سنة ٥٢٢ ق.م

هؤلاء الرجال إذن اشتركوا فيما يقال فى وضع التشريع العام الذى اكتسب صيتا ذائعا بين سائر الشعوب. ويقال إن كثيرا من هذه القوانين التى كانت صالحة فى رأى الكافة قد تغيّرت عندما انتصر المقدونيون وقضوا على الحكومة الملكية الوطنية إلى الأبد.

٩٦ والآن.. بعد أن فصلنا هذه المسائل، يجب أن نتحدث عن أولئك اليونانيين الذين زاروا مصر فى العصور القديمة ليدرسوا ما فيها من نظم وعلوم، يقول الكهنة المصريون- معتمدين فى ذلك على ما ورد فى الكتب المقدسة- إن أورفيوس[١] وموسى وميلامبوس Melampus [٢]وديدالوس[٣] والشاعر هوميروس وليكرجوس الإسبرطى وصولون الآثينى، والفيلسوف أفلاطون زاروا مصر فى العصر القديم، ويزعمون أن العالم الرياضى يودكسوس[٤] Eudoxus وديموقريطس[٥] الأبدرى وأينوبيدس[٦] Oenopides الحيوى قد جاءوا إليها أيضا والأدلة التى يسوقونها على صحة هذه الدعاوى كلها هى التماثيل التى أقيمت لبعض هؤلاء اليونانيين، والبقاع والمنشآت التى سميت بأسماء البعض الآخر[٧]، والعلوم التى صرف كل منهم إليها همته،

(١) شخصية خرافية، كان اليونانيون يعتقدون أنه أشهر الشعراء قبل هوميروس

(٢) كان اليونانيون يعتقدون أنه أول من أدخل عبادة ديونيسوس عندهم

(٣) شخصية خرافية، اعتقد اليونانيون أنه أدخل فنون النحت والعمارة فى أثينا وكريت

(٤) جغرافى ورياضى من تلاميذ أفلاطون، والشواهد كثيرة على زيارته لمصر

(٥) راجع فصل ٣٩

(٦) راجع فصل ٤١

(٧) جاء فى إسترابون ١٧، ١ أن البيت الذى نزل فيه أفلاطون ويودكسوس كان قائما فى هيلوبوليس

زاعمين أن كل ما نالوا الإعجاب من أجله عند اليونانيين كان منقولا من مصر، ويقولـون إن أورفيوس نقل من مصر أكثر الطقوس الباطنية والشعائر السرية المتعلقة بسياحته، وأساطير العالم السفلى، ذلك بأن شعائر أوزيريس هي بعينها شعائر ديونيسوس، كما أن شعائر إيزيس قريبة الشـبه جدا بشـعائر ديميتير مع اختلاف في الأسماء وحدها، فعقاب الأشرار في العالم السفلى، وجنات الأتقياء وما ينسجه الخيال من ترهات يؤمن بها الكثيرون، مسـتقاة من الشـعائر الجنائزية في مصر، ذلك أن رائد الأرواح هرمس يسـوق- طبقـا للطقوس المصرية القديمة- جسم إبيس إلى مكان ما ويسلمه للذى يلبس قناع كربيروس Cerberus وثبّـت أورفيـوس هـذا التقليـد بين اليونانييـن وتابعه هوميروس وقال في شعره:

«وابتعث هرمس الكلينـي أرواح الخطّاب وقد قبض بيديه على عصاه السحرية» ثم عاد بعد أبيات قليلة فقال[1]

قد عبروا أمواه المحيط
وصخره الضوء اللماع
جاوزوا أبواب الشمس ومنطقة الأحلام
وها قد بلغوا بغتة رياض الشقائق
حيث تسكن الأوراح وأشباح الموتى

(١) الأوديسية ١٠٢٤ - ٢ و١١ - ١٤

وهكذا يسمى الشاعر النهر، «المحيط»[1] لأن المصريين يطلقون على النيل هذا الاسم فى لغتهم، أما أبواب الشمس (هليوس) فهى أبواب مدينة هليوبوليس، والرياض- مساكن الموتى الخرافية- هى المروج القريبة من البحيرة التى يقال لها أخيروسيا بالقرب من منف، وتكتنفها المروج البالغة الجمال والمستنقعات ونبات البردى والغاب، ومن هنا قيل إن مساكن الراحلين تقع فى هذه البقاع لأن أكثر مدافن المصريين وأعظمها قائم هناك، فينقل الموتى عبر النهر وبحيرة أخيروسيا وتلحد جثثهم هناك حيث توجد مقابرها.

وتتفق أساطير اليونان الأخرى حول العالم السفلىّ مع التقاليد التى لا تزال قائمة فى مصر، ذلك بأن السفينة التى تحمل جثث الموتى تسمى بارس، ويُنقدُ الجعل للسفّان الذى يدعى فى لغة أهل البلاد خارون، ويقولون إنه يقع بالقرب من هذه المنطقة معبد هيكاتس إلهة الظلام ومنافذ كوكيتوس[2]، وليتى[3] وتتخللها قضبان من البرنز، وهناك أيضا بوابات أخرى «للحق» وبالقرب منها يقوم تمثال بلا رأس «للعدالة».

ولا يزال كثيرٌ غير هذه من الخرافات سائدا فى مصر، وما انفكت الأسماء فيها باقية، والطقوس لا تزال معمولا بها، ففى مدينة أكانثوس فيها وراء النهر فى الناحية اللوبية، وتبعد مائة وعشرين ستادا عن منف، توجد جرة مثقوبة يحمل إليها الماء من النيل كل يوم

(١) الواقع أن هوميروس لا يعرف النيل إلا باسم إيجبتوس

(٢) نهر الأحزان المتصل بالعالم السفلى.

(٣) نهر النسيان المتصل بالعالم السفلى

ثلثمائة وستين كاهنا[1]، وبالقرب من هذه الناحية نرى خرافة أكنوس[2] لا تزال تقام بالتمام فى أحد الأعياد، حيث يضفر أحدهم حبلا طويلا، بينما يحل كثيرون من ورائهما ضفر، ويقولون إن ميلامبوس نقل من مصر الطقوس التى تواضع اليونان على إقامتها لديونيسوس، والخرافات الدائرة حول كرونوس، وقصص الحروب ضد المردة، وبالجملة حكاية كل ما عاناه الآلهة، ويدعى المصريون أن ديدالوس قلد دروب التيه المصرى الذى لا يزال باقيا إلى وقتنا الحاضر، وقد ابتناه على قول البعض منديس وعلى قول آخر ماروس[3]، وقد تولى الحكم قبل الملك ميونس Minos بسنين عديدة، ونَسَبُ التماثيل المصرية القديمة هى نفس نسب التماثيل التى أقامها ديدالوس عند اليونانيين، ويقال إن البوابة الخارجية فى معبد هيفايستوس فى منف، وهى جميلة جدا، أنشأها ديدالوس، وأعجب به المصريون وأقاموا له تمثالا خشبيا فى المعبد المذكور كان من صنع يديه هو نفسه، وأخيرا فقد اكسبته عبقريته شهرة عظيمة، وبعد أن قام باكتشافات كثيرة حظى بالتقديس الإلهى، ويوجد إلى الآن مبعد لديدالوس فى إحدى الجزائر بالقرب من منف ويقدسه فيها الشعب.

---

(١) إشارة إلى بنات دناؤس الخمسين اللائى كتب عليهن بعد الموت أن يملأن جرات لا قعر لها.

(٢) فى الأساطير اليونانية أن أكنوس فى العالم السفلى كتب عليه أن يضفر حبلا ووراءه حمار يأكل ما يضفر

(٣) راجع فصل ٦١

ويُقـدّم المصريون أدلّةً كثيـرة على زيارة هوميروس لمصر وأخصها الـدواء الـذى أعطته هيلينـة لتيليما خوس فى بيـت مينيلاوس، وما جلب له من نسـيان الشـرور التى أصابته، وهذا هـو دواء النينثيس[1] Nepenthes الـذى يقول الشـاعر إن هيلينة قد أخذتـه من بوليدامنه زوج ثـون فى مدينة طيبـة المصرية، ومن الجلّى أنـه فحصه جيدا، وهم يدّعون أن النسـاء فى تلك المدينة يسـتعملون إلى الآن هذا الدواء الناجع، ويقولون إنه اكتُشـف منذ الزمن القديم دواء لشفاء الغيظ والألم بين نساء ديوسـبوليس وحدهن، وميدنة دبوسبوليس هى نفسها مدينة طيبة، وهكـذا ينعت الأهالى أفروديت بلقب «الذهبية» فى الأسـاطير القديمة، ويوجد حول المدينة التى يسـمونها موممفيس سـهل يقال له (أفروديت الذهبية) ويقال إن هوميروس نقل من مصر أسـطورة معاشرة زيوس لهيرا ورحلته إلى الحبشة، وفى كل عام ينقل المصريون مقصورة زيـوس عبر النهر إلى لوبيا، وبعد بضعة أيام يرجعونها بالتالى كما لو أن الإله قد قفل راجعا من الحبشة، أما عن معاشرة هذين الإلهين فإن مقصورتيهما تنقلان فى الأعياد إلى تل قد فرشـه الكهنة بجميع أنواع الزهور[2].

(١) معناها مسكن الآلام، والإشارة إلى قول هوميروس فى الأوديسية ٤، ٢٢٠، ومن ثم سكبت فى الخمر الذى كانوا يشربون منه دواء مسكنا للآلام، ومنسيا لجميع الأحزان

(٢) يشير ديودور إلى قول هوميروس فى الإلياذة ٢، ٣٤٦ – ٨ «أما ابن كرونوس فضم خليلته بين ذراعيه، وأخرجت الأرض الطيبة تحت أقدامها حشائش ناضرة غضة وبشنين نديا، وزعفران وعيسلان رخصا سميكا».

٩٨ ولقد اقتبس ليكرجوس وأفلاطون وصولون كثيرا من السنن المصرية فى شرائعهم وتعلم فيثاغوراس من المصريين علم الكلام ونظريات المساحة والحساب، وحلول الروح فى أنواع الحيوانات المختلفة، ويعتقد المصريون أن ديموقريطس قضى بينهم خمس سنوات تعلم فيها كثيرا من مسائل علم الهيئة، وتعلم أونوبيديس فيما تعلم بملازمة الكهنة وعلماء الهيئة أن الشمس تدور فى شكل إهليلجى فى اتجاه مضاد لسائر الكواكب، وكذلك بعد أن درس يودكسوس عند المصريين علم الفلك نقل كثيرا من العلوم المفيدة إلى اليونانيين وأصاب عندهم شهرة عظيمة.

ولقد زار مصر أشهر المثالين القدماء تليكليس وثيودوروس ولدا رويكوس اللذان نحتا لأهل ساموس التمثال الخشبى لأبوللو البيثينى، وشاع القول بأنتليكليس أنجز نصف التمثال فى سامُوس، فى حين أنجز أخوه ثيودوروس النصف الثانى فى إفسوس ولما وضع النصفان بجانب بعضهما التأما إلى حدّ أنه كان يبدو كأن الأثر الفنى كله كان من صنع رجل واحد، وهذا الأسلوب فى الصناعة لم يصطنعه اليونان أبدا، فى حين أن المصريين عاكفون عليه على وجه التخصيص، ذلك أن المصريين لا يحكمون على تناسب التمثال بما يقع تحت أعينهم من منظور كما هو الحال عند اليونانيين.. بل إنهم بعد أن يصففوا الحجر، ويقسموه ويبدأوا العمل فيه، حينئذ يأخذون النسب والأبعاد صغيرها وكبيرها على حدٍ سواء، وهم يقسمون هيكل الجسم كله إلى واحدٍ وعشرين قسما وربع قسم، وبذلك يعطون كل نسب المنظور، وهكذا عندما يتفق الصناع

فيما بينهم على حجم الأثر الفني، يعملون كلٌ على حده، ويهيئون حجم التمثال بانسجام دقيق إلى حد أن تفرّد أسلوب صناعاتهم كان مثار عجب عظيم، وهكذا نُحت تمثال ساموس طبقا لأصول الصناعة المصرية، فقد شطر التمثال نصفين من قمة الرأس إلى العورة، وهذان النصفان متماثلان من جميع الوجوه، ويقال إن هذا التمثال يشبه في معظم الوجوه التماثيل المصرية وقد امتدت يداه وانفرجت رجلاه.

هذه إذن عجالة كافية في تاريخ مصر وما هو جدير بالذكر فيها وسنتبعها طبقا للخطة التي وضعناها في مستهل الكتاب بما تلا ذلك من حوادث وأخبار مبتدئين بما حدث للآشوريين في آسيا.